عنتر... وجوليت



قصص ولوحات

بقلم يحيى حقي

عنتر .. وجولييت

قصص ولوحات

تأليف

يحيى حقي

الناشر

مكتبة دار العروبة

٢٢ شارع الجمهورية بالقاهرة

مطبعة المدنى
المؤسسة السعودية بمصر
٢٩٥ ش رمسيس - القاهرة ت ٤٠٨٥١

مقدمة

— ١ —

القصة القصيرة مخلوق بروحين ، تكتسب الأولى منهما حين يفرغ الكاتب من تأليفها فتتبين لها سحنة مستقلة هى وحدها مناط الحكم عليها ، وتكتسب الثانية حين تضم إلى أخوات لها فى مجموعة واحدة فتصبح عضواً فى أسرة ، قد تنضح عليها معالم الشبه الغالب على أفرادها ، جميلا كان أو دميما ، فتمدح بغير فضيلة لها ، وتذم بغير جريرة منها ، وقديما قالوا : « القرعاء تتباهى بشعر أختها » .

فضم القصص القصيرة فى مجموعة واحدة يكشف عن فن المؤلف ولكنه يكشف أيضاً عن مدى الإتساع أو الضيق فى مجال إهتماماته ، وليس كل إتساع ميزة ، ولا كل ضيق عيبا ، بل قد يكون إلتزام الكاتب لمجال ضيق هو به خبير أنفع له ولنا من تخبطه فى مجال متسع تثبت فيه قدمه أحياناً وتتعثر أحياناً أخرى ، فكل الذى نطلبه هو الصدق ورشاقة التعبير وجدته . فإن استطاع الكاتب أن يقدر على وجه التقريب حظ القصة القصيرة الواحدة عند القراء فإنه يتردد فى حكمه على المجموعة ولا مفر له من أن ينتظر رأى النقاد فيها . .

وها أنذ أقدم مجموعة من قصص قصيرة قليلة تعد على أصابع اليدين ، اعرف سحنة كل واحدة منها ، ولكن ليس لى عن رباطها ودلالاته سوى فكرة مبهمة ، على حين زعمت لى نفسى أننى وصلت إلى تحديد هذا الرباط ودلالاته حين اقرأ مجموعات القصص القصيرة التى يكتبها الآخرون ، فمعرفة النفس أشق من معرفة الغير . .

وقد ألحقت هذه القصص بشىء لا أجد له وصفاً ينطبق عليه اصدق من كلمة « لوحات » فهو متردد بين الانتساب من قريب إلى المقالة والانتساب من بعيد إلى القصة القصيرة ، فليس غرضه الأول هو عرض آراء بل وصف الحياة وطبائع البشر ، فعسى أن لا يتهمنى الناس بأنى أبعث من القبور هذا النوع من الكتب القديمة التى يقول مؤلفها فى مقدمتها أنه سيأخذ من كل فن بطرف . .

— ٢ —

يخيل إلىّ أن النوع الذى أحبه هو قصة قصيرة لها مقدمة طويلة . . محذوفة ، فإن هذا الحذف هو تعليل شعور القارىء منذ أول سطر أنه بإزاء مخلوق حى سوى الخلقة وجو متكامل ، وإن تكشفت له أوصاله وعناصره بعد ذلك قليلا . . قليلا . .

وهذا ما حدث لى عند كتابة القصة المسماة « فى العيــــادة » فقد وجدتنى حين كتبتها أطيل المقدمة حتى بلغت حداً يفوق القصة ذاتها ، لحذفتها كمقدمة للقصة ، وإن أبقيتها فى الكتاب بين لوحاته ، وسيلحظ القارىء أن المقدمة هى التى هيأت لى أن ابدأ القصة ذاتها وأنا شديد

الإحساس بعذاب الإنتظار ، فالقصة تدور حول عانس تعانى عذاب إنتظار الزوج والمقدمة تصف عذاب زوار العيادة فى إنتظار الطبيب . .

— ٣ —

ظللت طول عمرى أضيق أشد الضيق عند كتابة القصة القصيرة بما أسميه « عنصر السرد » أى خضوع الفكرة لسيطرة مطالب تأليف الجمل وترتيبها وربط بعضها ببعض ، فالفكرة عندى ينبغى لها أن لا تمشى كالأعمى ويده على خواجز بين الجانبين تحدد سيره وتهديه إلى الطريق ، بل ينبغى لها أن تنطلق بلا قيود ، ان تقفز أحياناً بدل أن تمشى طول الوقت ، أضيق أشد الضيق بروابط الجمل وبحروف السببية ، وكل كلمة من أمثال « ولذلك ، ومن هنا .. ومعنى هذا .. والسبب فى ذلك » أنها تزج نفسها لشرح موقف ينبغى أن لا يحتاج لشرح ، إن هذه الألفاظ كرنين الخبط على أوتار العود فى يد العازف غير المتمرن ، أما العازف البصير فإنه يسمعك الحانه بريئة من ضجة هذا الخبط ، وقد أحسن باسترناك فى التعبير عن هذا المعنى ، فقد وصف الشاعر زيفاجو بطل قصته وهو يصوغ قصائده بهذا الوصف البديع :

« لما فرغ من القصائد الكاملة القديمة بدأ يسجل القصائد التى كان بدأها ولم يتمها ، فجعل يتلو مطالعها ليستلهم منها خواتيمها وأخذ يسجل مرة بعد مرة ، وكلما فعل كانت اللاحقة أفضل من السابقة وهو لا يأمل أبداً أن يتمها فى جلسته ، وأخيرا سلس قياد قريحته ، وجرى تيار افكاره ، وبدأ يكتب قصيدة جديدة . لقد فاضت فى ذهنه مطالع

القصيدة ، وتداعت له تشبيهات دهش لها هو نفسه فاستحوذ عليه قلقه وأحس أن مايسميه بالوحى سيهبط عليه وشيكا ، فى هذه الآونة تنقلب العوامل التى تخلق الأثر الفنى رأساً على عقب ، فلا تبقى فى قمتها ملكة الكاتب أو المعانى التى تدور فى رأسه ويريد أن يعبر عنها ، بل الذى يقفز إلى القمة هو اللغة : أداة التعبير . فاللغة هى المأوى والمستكن للجمال والمعانى ، إذا استحضرها الإنسان أخذت هى - مستقلة - تفكر وتنطق له ، وتذوب كلها فى لحن موسيقى لا تتبين نغمته فتسمعها الأذن ؛ بل هو لحن يغمره فيض داخلى بفضل قوته واندفاعه ، وحينئذ يصبح تيار النهر العظيم الذى يصقل الأحجار ويدير الطواحين يشبهه فيض الكلام يخلق فى تدفقه ، وبفضل قوانين يختص بها لذاته نغمة وراء نغمة ، بل يخلق ما هو أهم من ذلك : أشكالا وتراكيب لا حصر لها ، لم يسبق لأحد من قبل أن فطن لها أو اكتشفها أو وجد لها أسما . .

وأحس حينئذ أنه ليس هو صانع هيكل الأثر الفنى ، بل هى قوة مجهولة تعلوه وتسيطر عليه ، هذه القوة هى ذهن الكون وقصيده فى تلك الآونة وفى المستقبل ، واحس كذلك أن الذى يسيره إنما هو خطو هذه القوة فى تطور تاريخها ، وأنه هو فى يدها ليس إلا ذريعة وأداة ومرتكزاً . .

ولقد أنقذه هذا الشعور برهة من ضجره بنفسه ، وكان يلومها ، ولا يرضى عنها ، وتحت وطأة الشعور بالتلاشى رفع رأسه وتلفت حوله

وفى اليوم التالى وجد أن الأوراق التى سودها بالليل تنقسم إلى

نوعين . الأول مكتوب بخط جميل وهى النسخة النهائية لقصائده الأول بعد تنقيحها ، والنوع الثانى مكتوب بخط غير واضح مضطرب مملوء بالإشارات والفجوات ، وهى أولى محاولاته فى قصائده الجديدة ، ولما فك رموز هذا الخط ، أحس كعادته بخيبة أمل كبيرة ، فهذه العبارات البكر التى دهش لها حين صاغها فى أبيات من الشعر فى الليلة الماضية ، واغرورقت عيناه من فرط فرحته بتوفيقه إليها ، هذه الأبيات ذاتها ملأته حزناً حين أعاد قراءتها إذ وجدها بينة الافتعال ، مولودة فى توتر وعسر ، وقد ظل يطمع طول حياته أن يبتدع له أسلوبا أصيلا مبتكراً يعتمد على الهمس والتلميح ، متخفياً مع ذلك تحت قناع بقية الأساليب الجارية المألوفة ، إنه سعى طول عمره فى نصب شديد ليصل إلى أسلوب محتشم لا يتباهى ببراعته ، تنتقل به المعانى إلى القارىء أو السامع واضحة جلية دون أن يحس بالجهد الذى بذله صاحبها فى صياغتها ، إنه يجرى وراء أسلوب يخامر القارى دون أن يقلقه بإثارة إنتباهه ، ولشد ما يرعبه أن يرى أنه لا يزال قاصراً عن أن يبلغ أمله المنشود ، فقد حاول فى الليلة السابقة بكلمات بسيطة مسربلة بالحياء مكتوبة كأنها مناغاة أم تنيم طفلها ، أن يعبر عما يساور قلبه من شعور مختلط يجمع بين الحب والأسى ، والخوف والإقدام ، على صورة تبرز فيها المعانى بفضل كيانها وحده ، كأنها ليست فى حاجة إلى الألفاظ ، ولما أعاد تلاوة محاولاته الأولى ، وجد أنه تنقصها الفكرة الأساسية التى تربط أجزاءها ، وتجمع أبياتها فى وحدة متناسقة ، فألغى ما كتب

عن منازلة القديس جورج للتنين واستعان ببحر فسيح من بحور الشعر ، إلا أنه وجد أن سلاسة الكلام ليست وليدة المعانى ذاتها ، بل مستمدة من نغمة البحر ذاته ، وأكربته منه تفاعيله المتتالية الرتيبة ، فعدل عن هذا البحر الرنان المنغم إلى بحر قصير يختصر لغو الأبيات الطويلة ، كما تختصر الألفاظ الزائدة فى النثر ، وبدا له بلوغ الهدف الجديد أشد عسراً ، وإن كان أشد إستمالة للنفس ، ودبت الحياة فى الكلمات ، وإن لم تخل بعد من الأطناب فعدل من جديد إلى بحر أقل طولا ، حينئذ وجد الألفاظ تتجمع محدودة بلا أطناب ، وأخذ الأسلوب يوحى إليه بمعان مستكنة من غير حاجة إلى الإشارة إليها حتى ليسمع فى قصيدته وقع حوافر الحصان ، كما يسمعه فى أحد ألحان شوبان »

هذا هو الأسلوب الذى أؤمن به ولا أكف عن الحض عليه ؛ وسيجد القارىء فى هذه المجموعة قصة « عنتر وجولييت » مكتوبة على نحو جديد حاولت فيه أن أكسر ما أمكن من مطالب السرد حتى تتحرر الفكرة من سيطرة التركيب اللغوى ، وعسى أن لا يكون الحكم على هذه التقليعة الجديدة هو المسارعة إلى اتهامها بأنها تقليد مفضوح للشعر المنثور . .

سيجد القارىء ألفاظاً عامية غير قليلة متناثرة فى هذه المجموعة ولا يفيد هذا أننى من أنصار العامية ، بل على العكس أنى أؤمن أن الإداة الفنية الوحيدة هى اللغة الفصحى ، ولكن هذا لم يمنعنى من حرية الاستعانة ببعض الألفاظ العامية ، وقد قيدت حريتى بشروط ثقيلة .

١ — أن لا أجد فى الفصحى - بمقدار علمى - لفظاً يؤدى كافة المعانى والإيحاءات التى احتاج إليها ويمدنى بها اللفظ العامى وحده

٢ — أن يكون شكله شبيها بأشكال ألفاظ اللغة الفصحى .

٣ — أن أضعه فى الجملة كما تنطق به العامة فلا أخضعه لقواعد النحو والصرف وصيغة المثنى وجمع التكسير وجمع المذكر السالم وهكذا . .

٤ — أن يكون متجرداً من قواعد اللغة العامية كإدخال حرف الباء فى أوائل الأفعال أو النفى بحرف الشين فى آخر الكلمة .

٥ — وأخيراً - وهذا هو الشرط الأساسى - أن يكون فى اللفظ العامى شحنة فنية تدل على حسن ذوق أهل البلد وظرفهم وطرافة منطقهم . .

تعود إلى ذهنى وأنا أكتب هذه الفقرة : ذكرى صديقى الكبير المرحوم عبد القادر العمرى - من أسرة العمرى الشريفة التى لم تنقطع صلتها بالفن جيلا بعد جيل سواء فى الشعر أو الرسم أو التنقيب عن الآثار أو جمع التحف أو بذل النفس والمال فى حب الخير والجمال ،

كان قد غاب عن مصر أكثر من عشرين سنة ، فلما عاد كان أول ما فعله أن طلب منى أن أصحبه فى جولة فى الأحياء البلدية . . قال : إن نفسى تشتهى أن أسمع من فم المرأة البلدية كلماتها « أجرته ، أكنه ، يادلعدى . . يا تداشة ، وأضاف وعيناه مغرورقتان بالدموع : هذه الكلمات هى أكثر شيء كنت أحنّ إليه وأنا فى الغربة . . .

يحيى حقى

القسم الأول

القصص

السَّرير النحاس

وجدت زينب فى شراء الجهاز مرحلة متعبة لذيذة معاً، وكأساً أذاقها مع الجذل دموعاً لها طعم جديد ، هى تارة دموع تحنن وسعادة لا تخلو من خجل حين ترى أمها تهلك نفسها لتستوفى لها جهازها ، هى التى فكرت فى الطاسة والكوز وكرسى الحمام والقبقاب ، حتى المقشة اشترت لها اثنتين ، واحدة بيد وأخرى بغير يد ، وهى تارة دموع حنق لا يسلم من دلع حين تنبط من الحرير الطبيعى إلى الاصطناعى :

ـ احنا يا بتى يادوبك فى الأول ، والتقل لسه ورا ..

الود ودها أن تغرقها فى الذهب والجوهر ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ..

هى أسرة متوسطة الحال ، تدحدرت بعد موت عائلها ، ورفضت الست عديلة أن تتزوج لخشيتها على ابنتها الوحيدة من غوائل زوج الأم ، يحلف أهل الحى بحياتها ، ويقوم لها الرجال وقوفا مطاطئى الرؤوس إذا خرجت أو دخلت ، وقد اختفى وجهها تحت بيشة تكتم أنفاسها ، وعاشت فى بلدها دمنهور فى ستر تبيع قيراطا بعد قيراط من خمسة أفدنة هى كل ما بقى لها ، ورفضت حين ألح عليها خطيب ابنتها أن تعيش معهما فى القاهرة ، قالت بقلبها أنها لا تريد أن تعيش مشبوهة بأنها عالة على غريب ، وقالت بلسانها أيضاً أنها ستبقى فى الدار الذى

ولدت فيه وتزوجت فيه لتموت فيه وتطلع خرجتها منه ، سيعرف النعش سكته وحده بلا دليل :

- تفى من بقك يانينا ، انشالله أموت أنا فداكى ..

- الموت علينا حق يابنتى ..

ونشأت زينب لا تعرف من الدنيا إلا حضن أمها ، إلى اليوم تنام معها فى فراش واحد ، وبالليل تطوق أمها بذراعيها وتضع رأسها على صدرها الوثير ، يارب ! ما أطيب هذه الرائحة ، وما أزكى هذا النفس ، ليس فى الدنيا إنسان ينعم بنوم لذيذ مثلها ، إنها فخورة بأم لم ينطق فمها قط بكلمة عيب ، ولا كسرت خاطرها فى يوم .

وأورث اليتم زينب إحساساً مرهفاً ، ماتت جارتها فى المدرسة فحزنت فى الدار وأبت أن تعود إلا إذا بدلت الناظرة مقعدها إلى تختة أخرى ولو فى آخر الفصل ، وكان كربها أن استلفتت الأنظار إليها لا يقل عن حزنها على زميلتها ..

هكذا هى ، حبها لأمها بلغ درجة العبادة ، رعشته من سعادة ووجل معا ، ومع ذلك أخذت تجررها وراءها من دكان إلى دكان لشراء الجهاز ، إذا سخنت وورمت قدماها داخل الحذاء نسيت أن تسأل العجوز التى تلهث هل هى متعبة أم لا ، فالفرح كالمصيبة ينسى ..

كانت زينب تريد أن تشترى السرير الخشب الذى رأته فى دكان بيع الأثاث ، أعجبها أن على واجهته رسوماً تتكرر على دولاب الملابس ، وشاقها هذا الارتباط بين الإثنين ، إنها بذلك تشترى طقما كاملا لا سريرا وحده ودولابا وحده ، يختلف هذا عن ذاك ، وسحرها

فى السرير أيضاً أن عند رأسه كومدينو على اليمين وآخر على اليسار ، تتصور من الآن لذتها إذا مدت يدها وهى راقدة فاستخرجت من درجه أشياء لا يسعفها الوقت أو المزاج فى النهوض للبحث عنها فى مكان آخر بعيد ، إنها تريد أن تكون « مودرن » ولا تضع كل شىء بين المراتب كما تفعل أمها ..

ولكن الست عديلة رفضت بحزم ، قالت لها لا يغرنك المظهر ، انظرى ظهر هذه القشرة اللامعة ، ستجدينه من خشب الصناديق ، وما هو إلا صيف وآخر حتى يتشقق وينفلق وهيهات له أن يقوى على العزال والشيل والهبد ، وقالت لها أيضاً :

ـ وح تعششى عليك البق وتشيلى همه ليه ؟

اشترت لها الست عديلة ـ رغم الدموع التى سالت على الخدين وذاق أذيالها طرف اللسان ـ سريرا فخما من النحاس ، لم يكن من الطراز الحديث المطلى بالنيكل ، أعمدته مضلعة وطولها نصف ، بل من طراز قديم ، نحاس أصفر ، أعمدته غليظة مستديرة عالية إلى السقف هى الأربعة ، فوق كل عمود عسكرى ضخم كأنه قبة وواجهة السرير ملآى بزخارف مشبكة كسور مقام يحج إليه ، دوائر كبيرة وصغيرة متماسكة بمسامير رؤوسها صلع تبرق ، هذا هو السرير الذى يملأ العين ، وينطق بالمجد الأصيل ولا يجد الجسم إلا عليه راحته ، ولما خاطت الست عديلة كيساً أخضر لمصحف صغير لتعلقه زينب على رأس العمود الأيمن قالت لها :

والنبى كنا ح نحطه فين فى السرير الخشب الأزعر إياه .

شهد هذا السرير دخلة زينب ، ومولد ابنها البكرى ، وبنتها الأولى والتوأمين اللاحقين ، لا يدخل فى الحساب السقط وما أكثره ، ومر أكثر من صيف ، وإذا الزمن يبلى النحاس كما يبلى الخشب ، طارت العساكر ، وأصبحت قمة الأعمدة بلاليع مفتوحة مشرذمة الحوافى ، انطفأ اللمعان ، واسود قليلا ، طارت حلقات من الحلية ، انكشفت أنياب المسامير وأصبحت تؤذى عند اللمس ، ولكن أولاد الأصل خيرهم فيهم ، يتجملون والزمان يدور دورة عكس ، إذا كان السرير النحاس قد فرج أيضاً بين قوائمه كما تفعل الفرس حين تبول ، وأصبح يدندن عند الطلوع إليه أو النزول منه ، فإنه لا يزال رغم الندوب والروماتزم متماسكا شامخا سمحا كريما فسيحا ، تنام فيه زينب وزوجها وبينهما آخر العنقود وولد آخر إذا كان مريضا ، وإذا رفعت طرف المرتبة وجدت تحتها أكداسا من الأوراق والخرق ومصروف البيت لآخر الشهر ، اكف القدرة على فمها تطلع البنت لأمها . .

هذا السرير هو ملاذها ، والمأوى الذى تهدأ فيه بعد نهار ينقضى من طلوع الشمس إلى ما بعد العشاء فى عمل متصل ، إذا أسلمت إليه جسدها الضخم المتعب ، أحست أنها ريشة فى كف انبسطت لتتلقفها برفق ، تلم شعرها قبل أن تنام ، وتعقد عليه منديل رأس ، حينئذ تعود إلى وجهها مع تباشير الراحة ملامح زينب الفتاة الرشيقة ، تنام فى حضن أمها ، فمها العريض أصبح مكورا ، كأنها تمص حبة باستيليا ، نظرتها تحولت من التعب إلى السذاجة والاستسلام ، ونطقت نبرتها وهى تهدهد أطفالها بنغمة رقيقة حنون لا يعرفها صوتها بالنهار ، وفى ليالى

الضيق حين يغيب زوجها أكثر من عادته يسعها السرير النحاس وهى تتقلب على الجنبين وتستجدى النوم تعسيلة ، لا تظن أنها قادرة على الحياة إذا حرمت من هذا السرير فى يوم، حين تزور دمنهور تشتاق إليه رغم حضن أمها ..

ومن عادة الست عديلة أن تزور ابنتها زينب فى المواسم ، ما أحلاها من زيارة يزيط لها الأولاد ، تأتى ومعها قفف المنين والقرص والفطير المشلتت وكمية من البيض الكبير المزهزه ، وبطة مذبوحة ، شحمها الوفير كالكهرمان ، وفى الليل تنام الأم على كنبة فى الفسحة ، فالست عديلة تؤكد أنها تحب الكنبة لأنها تصلح لنومه وتكويعة وتعسيلة ومد للرجلين ، إذا كانت راقدة وجاءتهم زائرة فما هى إلا حركة بسيطة تنتقل بها الوسادة من الرأس إلى الوسط حتى تتهيأ لاستقبال القادمة باحتشام وتجلسها إلى جنبها ، وعلى الكنبة مكان مفصل لصينية الفطور وصينية القهوة وصينية الغداء أو العشاء إذا كانت أقدامها تنبح ، ولم التعلل ؟ فما السبب إلا أن بيت زينب ليس به من فراش سوى السرير النحاس بجلالة قدره ، وهيهات للست عديلة أن ترضى أن تنزل عنه العائلة كلها لتنام هى فيه وحدها ، ويرقد أعزاؤها على المراتب فوق الأرض فى حجرة الضيوف أو الفسحة ..

بعد يومين من آخر زيارة لها ، تناولت الست عديلة عشاءها فوق الكنبة : البقية الباقية من الفطير المشلتت ، وقد جف وتجلد ، والحلو عسل أسود وبعد قليل شعرت أن الأكل كبس عليها (لعل العسل كان حامضاً) فطلبت ماء عليه مزهر ليروح عنها ، ثم نامت ، وفى الصبح

لم تستطع رفع رأسها عن الوسادة ، جست زينب جبينها فوجدته ساخناً ، وقالت الست عديلة بصوت ضعيف :

ـ مش حاجة ، طالع شوية برد ..

اسبرين ، شاى بليمون ، حساء فول نابت ، وفى المساء ارتفعت الحرارة حتى كاد جسدها يئز ، وأخذت تتلكأ فى الإجابة على أسئلة ابنتها وتجيبها أحياناً بكلام غير مفهوم ..

وبعد قليل راحت منهم فى غيبوبة ، وتملك جسدها هياج عنيف ، كأنما أشعلوا تحتها ناراً ، تريد أن تفر ولكنها مقيدة بسلاسل ، لا تنقطع عن التقلب على الجنبين ، رأسها فى تلفت مستمر يمنة يسرة كأنها فى حلقة ذكر ، يداها طالعتان واحدة بعد أخرى إلى صدرها لحظة ، ثم نازلتان عنه كما يسقط الحجر ، أنها فى كرب عظيم ، ووقفت زينب مصفرة ذاهلة ، تحركت عيناها للبكاء حين خيل إليها أن أمها ـ رغم غيبوبتها ـ تحس بكل ما يجرى لها ويجرى حولها ، وتمنت لو أن أمها صرخت ، فهذا الصراخ أهون على زينب من انعقاد لسان عزيزتها ، ثم انطلقت دموعها مدرارا حين رأت يدى أمها تهمان بتمزيق ثوبها ، كأنها تريد أن تتعرى ، الست عديلة تتعرى وهى التى عاشت طول عمرها طاهرة فى مأمن من الفضيحة ؟

ينبغى المبادرة بنقل أمها إلى السرير النحاس ، فهذا هو مقامها ، ثم أنها تكاد تقع من على الكنبة ، ولامت زينب نفسها أنها تأخرت فى إكرام أمها ، ولكنها لم تكن تحسب أن المرض يغتالها بمثل هذه السرعة ، ستنام هى وزوجها والأولاد على مرتبتين فوق الأرض

فى حجرة الضيوف ، وحين يكتب لأمها الشفاء عن قريب ستطلع إلى السرير النحاس وترقد بجانبها ، وتضع رأسها على صدرها كأيام زمان :
- إن شاالله يارب ! إن شاالله يارب !

ونادت زينب زوجها ورفع الإثنان الست عديلة بينهما كالذبيحة المتشنجة حتى وضعاها فوق السرير النحاس ، وانقبض قلب زينب حين خيل إليها أن دندنته هذه المرة نطقت على غير عادتها بالرهبة والوجوم ، لم يشغل جسد الست عديلة من السرير النحاس إلا مجرى ضيقاً هابطاً تحتها ، ولكن السرير بدا رغم رحابته كأنه مفصل على قدها ، فهكذا يكون لقاء الكفء بالكفء والأصيل بالأصيل ، هل هى واجهته التى تشبه سور المقام ؟ أم هل هو المصحف الشريف الناعس داخل كيسه الأخضر المترب ؟ أم عتمة المساء ؟ أو ترجيع هذه البومة التى كانت هجرت الحى منذ أيام طويلة ثم لم تشأ أن تعود إلا فى ليلتنا هذه لتحط على سور الخرابة المجاورة كأنها على موعد لتطلق صيحتها المشئومة ؟ .. لا أحد يدرى ، إنما ملأ الحجرة إحساس بأن السرير النحاس يتهيأ ليقوم بنبل وكبرياء بوظيفة جديدة عليه ، استقبال عزرائيل ومشهد طلوع الروح ، وضم جسد حى يأخذ فى البرودة شيئاً فشيئا حتى يصبح كلوح الثلج ، ولحم شاحب يصفر كالشمع ثم يزرق فى بعض المواضع كلون النيلة ، وإشعاع دافىء يكاد يومض فى الظلام ، ينبعث من دينامو مغلق النوافذ محجب الأسرار يتحول لجأة إلى رائحة زخمة رطبة كرائحة الصلصال المبتل ثم عما قريب إلى رائحة نتنة هى أبغض شىء فى الأرض ، كان السرير النحاس إلى اليوم مأوى وملاذا ، وهاهو ذا يستعد الآن بلا تذمر ليكون ضريحا ..

وجاء الدكتور عصر اليوم التالى ، وقال إنها حمى بالمخ وأن الليلة القادمة عصيبة ، فإذا طلع النهار وهى بخير فقد زال الخطر ، يريد أن يقول إنها ستموت قبل الفجر ، ومع ذلك أعطاها حقنة ستربتوميسين تطمينا للأهل وتبرئة للذمة وتحليلا للأجر . . ولم يكد يخرج حتى بدأت الحشرجة ، أصيبت زينب - ياخيبتها ! - بالإسهال ، هذه هى عادتها عند الخوف ، وهذا ما حدث لها دائماً عند الغارات الجوية ، أصبحت كالمكوك بين أمها والمرحاض ، دموعها لا تنفك تجرى على خديها فتمسحهما بأصابع هى الأخرى مبتلة ، إنها فى رعب شديد ، تحس كأن سكينا يفرى نياط قلبها ، لا تصدق أن أمها ستموت . . وزادت الحشرجة ، وأصبحت شخيرا كأنه نزع منشار معصلج فى بطن شجرة تصلبت أليافها كالحديد عند وقع الخطر . .

زينب تدور فى البيت كالمجنونة ، تفرك يديها ، هى فى حيرة شديدة صوت فى قلبها قال لها :

ستبقى رائحة أمك فى هذا السرير تشمها أنفك إلى آخر عمرك ، وهل يجىء لك قلب أن تنامى بعد ذلك فوق هذا السرير الذى ماتت فيه أمك ثم تنعمين بالراحة ؟ أتبيع السرير ؟ ومن الذى يشتريه ؟ وأين تجد مثله ولو خرج بيت ، هل تتركها فى السرير لأنها ترفض أن تؤمن بأن أمها ستموت ؟ هل تتزلها عنه رحمة بلياليها القادمة وتحكم بذلك أنها ميتة قبل طلوع الفجر ، تكتب بنفسها صك وفاة أمها قبل الأوان ؟..

دارت فى البيت حتى كاد عقلها يطير برجا بعد برج ، الدموع تنهمر من عينيها كالمطر الغزير ، لم يعد طرف اللسان من كثرتها يجد لها مذاقا ،

احمر الجفنان ، وتسلخ جلدهما ، وقبيل الفجر بدأ الشخير تتباعد نو باته وتضعف ، أقدام كانت تجرى فبلغت نهاية الشوط ، وأخذت تتوانى قليلا قليلا قبل أن تقف ، ونادت زينب زوجها ، وطلبت إليه أن يساعدها فى إنزال أمها من على السرير لأنها أعدت لها مرتبة فى حجرة الضيوف فقال لها :

- لزومه إيه ، بلاش قلقلة لها فى الساعة دى . .

هتف قلبها :

- يامغفل ! أفتكون أنت أحن منى على أمى ؟!

وقالت له :

- سيبنى ، أنا جتتى مش خالصة . .

كأن إنساناً آخر نطق بلسانها ، فلا هى فهمت ولا زوجها فهم معنى هذا الرد . .

وكما حملا الست عديلة من الكنبة إلى السرير النحاس ، حملاها مرة أخرى ووضعاها على مرتبة فى حجرة الضيوف ، وزينب لا تكف عن البكاء وقد تقوس جسدها وهى تحمل المرتبة من طرفها وتولول :

- سلامتك يانينا ! سلامتك يانينا ألف سلامة ..

فردت زينب على أمها بمنتهى المحبة والإعزاز لحافاً كبيراً وغطتها به ، اللحاف فى داهية ، على كل حال سيأخذه الحانوتى ..

وسهرت بجانبها ، ونام زوجها ، وقبيل الفجر دبت قوة خفية فى المحتضرة ، وأمكن لساعديها الميتين أن يزيحا اللحاف الثقيل وتبرز يدها اليمنى من تحته تفرد سبابتها ، والشفتان جامدتان ، والعينان مغمضتان

لم تشأالست عديلة أن تموت إلا بعد أن تتشهد ..

* * *

أجمع الأقارب والجيران على أن زينب شملت المأتم كأن الفقيدة عروس فى ليلة زفافها لا أم عجوز شبعت من الدنيا ، تلطم خديها بقسوة وتمزقهما بأظافرها كأنها تنتقم من عدو ، والعجيب أنهم لم يقولوا لها كالعادة : كفى حزناً على أمك ، بل نطق لسانهم بهذا الزجر : ـ

ـ كفى تعذيباً لنفسك !

السلم اللولبي

سلالم الحديد اللولبية المتسلقة - كالطفيليات - جدران العمارات الشاهقه - وكأنها بريمة ضخمة - ضلالة دخيلة علينا ، ورثناها أغلب الأمر عن تفنن محاكم التفتيش الأسبانية فى ابتداع أمكر وسائل التعذيب الوحشى وأخسها ..

المصاعد حلال للسكان وضيوفهم حتى لو صعدوا للدور الأول والثانى ، حرام هى والسلالم العريضة المريحة - بأمر ملاك وبوابين - والسيد يعرف من خادمه - أرذال غلاظ القلوب مصابين بداء العظمة والساديه،على حاملى المقاطف الثقيلة من الخدم والباعة وتجار الروبابيكيا وصبيان البقال والمكوجى وبائع الثلج حتى ولو كان السطح مقصدهم أنهم أحفاد العمال بناة الأهرام ..

سلالم مدسوسة أحياناً فى مناور كالبئر السحيق . لم أر فى حياتى مثل هذه المناور وجهاً كالحاً دميا مقبضاً ، ينطق بفساد الضمير وقاذورات الجوف فتظن أنها جحر سكانه من الفيران ، وتكون أحياناً فى الهواء الطلق ، فيخيل إليك - وأنت ترى سيقان الصاعدين الهابطين من تحت جلاليبهم مفتولة معصعصة - إنك بأزاء لعبة جديدة فى لونا بارك لبهدلة خلق الله وإفزاعهم ! إذا كان الصبى حين يصعد ينسيه دق القلب ودلدلة اللسان وجفاف الحلق أنه فى حلقة ذكر تصعدبه

للسماء ، فإنه حين ينزل متدحرجاً - كأنه يسقط فى الفضاء - يتصادم بالدرابزين فى حركة بلية الروليت ، قد يبتسم وتتملكه النشوة لهذه الخفة الطارئة يغتبط بها جسده ، ولهذا التتابع الرتيب فى الدوران، وأخيراً لهذه الدوخة التى تبدأ أول الأمر لذيذة ثم إذا استقرت قدماه على الأرض ظل برهة والدنيا تدور حواليه ، فى قلبه غثيان ، وفى أذنيه طنين ، لكن رغم هذا الهم والغم فإن السلالم الخلفية يعمها دون السلالم العريضة بصمتها وبرودتها جو من الثرثرة البهيجة والمرح الذى يبتدعه ابتداعاً ومن لاشىء الساعون وراء الرزق فى إرهاق جسمانى ونفسانى ، مشاكسات طفيفة - من قبيل الدعابة - مع الخدم قد تصل أحياناً إلى خبط بالأيدى على الأكتاف أو دفع فى الظهور ، تصحبه شتائم مثل « جتك خيبة » ، « جتك نيلة » ، « اتلهى على أمك » ..

هنا تبرز أمعاء العمارة ، من صفائح القمامة ، تعرف أكل السكان ومقدار نهمهم، من لحاف الخادم ومرتبته ملقاة على السلم سوداء كالهباب مبقعة بدماء البق تعرف مدى نظافتهم واحترامهم للآدمية ، سوق قائمة لتبادل المعلومات ، وهى فى ظن أصحابها أنها أسرار ، فلا ينقضى من النهار ساعة أو ساعتان حتى يتبين التبدل الطارىء على صورة العلاقات الغرامية بين الخدم والباعة ، وحتى يكون كل ماحدث فى الليلة السابقة فى كل شقة علماً مشاعاً ..

فرغلى صبي المكوجى يتردد على العمارة الكبيرة فى مدخل مصر الجديدة ، ثلاث من شققها من زبائن الدكان ، لا أدرى لماذا يحبه جميع فيران هذه السلالم اللولبية ، ألأنه دائم الابتسام ؟ وإن كانت ابتسامته

ليست للغير ، ولا متعلقة بالغير ، بل نابتة من روحه هو لروحه هي وحدها ..

إن النفس لتصاب بشيء من الانهدام والوجل حين تحس أن هذا الصبي الصغير قد ضرب بينه وبين الناس حجاباً وأنه فرض عليه في هذه السن المبكرة أن يعتنق لنفسه مذهباً يفسر به الحياة ويرسم له خطواته فيها ، حتى اصطنع لنفسه دنيا يعيش فيها وحده ، وهذا هو سر ابتسامته ، أم أنه يتميز عن أقرانه بمسحة من النظافة ، مع أن ملابسه كلها قديمة أو موهوبة أو مشتراه - خرج بيت - لأناس أطول منه قامة ، فقدمه الصغيرة في حذاء مقاس ٣٨ والسويتر الصوف يهبط إلى ركبتيه ، والطاقية التي يدفىء بها رأسه تغطي أذنيه وتقبل حاجبيه ، أم لأن الدائرين في حلقة الذكر المعلقة بين الأرض والسماء يحسون رغم دوارهم أن هذا الصبي الصغير اليتيم المصفر الوجه الذي يمشي كالمشايخ يهز رأسه يمنة ويسرة ، إنما يحمل - قبل الأوان - على كتفين لما يصلب عظامهما عبئاً قد ينوء به الرجال ..

إنه عميد أسرة تتألف من أم وأخ وأخت أصغر منه ، تقيم في قرية في حضن الجبل في مركز البداري . إن أجره هو عشرة قروش في اليوم لقاء عمل متصل من مطلع الشمس إلى العاشرة مساء ، يقبض منه خمسة وهو يحمد الله ويشكر نعمته ويقبل يده ظهراً وبطنا ، والباقي يودعه أمانة عند المعلم ، فإذا جاء أول الشهر ودفع الزبائن الموظفون دينهم تسلم منه ١٣٠ قرشاً (فلا أجر له يوم الاثنين) ويكون قد اقتصد عشرين قرشاً من البقشيش الذي يبلغ قرشين أو ثلاثة في اليوم ، فيتم له بذلك مائة وخمسون قرشاً يرسلها كوعده إلى أمه بإذن بريد في أول كل شهر ،

ينتظم فى الدفع لا يخل شهراً بعد شهر ، ستة قروش أو سبعة يأكل بهما ويلبس، لا يصيب من اللحم إلا يوم يتأخر المعلم فى الدكان فترسل له زوجته طبق طبيخ بلحم فيدعوه لمشاركته .

ليتك تراه وهو يغمس اللقمة بحياء من حافة الطبق ، لا يهبط بها إلا إلى منتصفها ، أما نومه ففى ركن فى الحجرة التى يسكنها خاله وأسرته فى عزبة الصعايدة بمصر الجديدة ، بينها وبين الدكان أكثر من خمسة كيلو مترات . . يقطعها سيراً على الأقدام .

جاء فرغلى فى صباح أحد الأيام إلى العمارة ، وفى نيته أن يمر على شقة الدور الثالث . فقد جاء دورهم ، إنه يعلم أن يوم الغسيل عندهم هو بالأمس ، ومر - وهو يدور حول العمارة . ليبلغ السلم اللولبى - أمام مدخلها بسلالمه الرخامية ، وبابه المزخرف بالنحاس اللامع ، قفزت من عينيه فى لمحة نظرة جالت المدخل ومصطبة المصعد ، فلم يجد للبواب أثراً ، إن أنفه شاركت عينيه فى التأكد من غيابه ، لأنه لم يشم هذا العطر السودانى الذى يفوح من أردان بواب العمارة ، غرر به الشيطان وحب المعابثة واستغفال البواب والاستعلاء عليه والتمتع بالسلم الرخامى ، والأمر هين ، فهو لا يصعد إلى الدور الثامن أو التاسع ، بل إلى الدور الثالث ، يستطيع أن يبلغه ويعود فى غمضة عين قبل وصول البواب، فإذا برجليه تجريان جرياً ويمرق كاللص الهارب من مدخل العمارة ويصعد السلم خطفاً يحاذر أن يلمس الدرابزين اللامع حتى بلغ باب الشقة ووضع أصبعه على الجرس وضغط عليه ، فسمع له رنيناً يخالف رنين باب المطبخ ، وكان يصل من قبل أحياناً إلى أذنيه وهو فى السلم اللولبى ، إنه لم

يرقط هذه الشقة من الداخل ، ولا يعرف وجه سيدتها ولو أنه يعرف عن الأسرة الشيء الكثير . .

انشغل فرغلى بجرأته على اقتحام السلم البريمو وبمرحه لمغافلة البواب ونسى « ركس » كلب الشقة ، إنه يعرفه ، وحين يراه فى الطريق يجرر السفرجى حتى يكاد يقع على وجهه ، يتشمم العواميد والأشجار ليبول ، ويفحص بيديه العشب المزروع وسط الطريق فى شيء يسمى حديقة ليغوط مثنياً ساقيه مدنياً شرجه إلى الأرض وهو يهتز ويرتعش كأنما الذى يخرج منه ضرس معصلج يخلعه بكماشة حكيم أسنان ، لو نطق لتنحنح فى لذة كبنى آدم ، فإنه يحذره ويمر من بعيد ، إذا ناداه باسمه ومصمص له بشفتيه فهذا سلام الماوردى على الفسخانى، فهو بطبعه يخاف الكلاب أشد الخوف .

إنه ألف أن لا تكتحل به عيناه عند السلم اللولبى وفهم أنه ممنوع على ركس دخول المطبخ ، إن أهل الشقة مسلمون ، ولكن لا صلاة لهم ، فلا يهمهم نقض الوضوء ، ولكنهم حنابلة متعصبون فى كراهية ريق الكلب إذا لعق الحلل والطبقان ، لعله خوف على الصحة . وإن سمع نباحه داخل الشقة وجف له قلبه ، إذا فتح له الطباخ مرقت نظرته - والباب لا يزال مواربا - فجالت خطفاً كنور الفنار فى أرجاء المطبخ ليرى إذا كانت الدار أماناً أم غير أمان ، ثم يدخل وقد يظل واقفاً على السلم .

نسى كل هذا وهو يدق الجرس على الباب البريمو ، لعل ذهنه الصغير لم يسعفه وينتقل بسرعة وخيل إليه فى عجلته أنه - كما ألف دائماً -

واقف على الباب السكوندو ، انفتح الباب على سواد مفاجيء كاد يطمس بصره ، يلف جمرة كبيرة متقدة ، أراه الذهول مكان العينين عينا واحدة واسعة مستديرة ، كأنها شمس فى لهيب الغروب ، وهجم عليه من الظلام كالسهم جسم قوى كالوتر المشدود ، هذا الكلب الذى يصر فى منديل محلاوى بدا له فى حجم الأسد ، اختلط نباحه بغمغمة وزمجرة ، لم يشعر فرغلى بنفسه إلاوهو واقع على استه وكفيه مادا ساقيه حتى انكشف نعل حذائه كله وبان فى وسطه خرق غير صغير ، ثم انتبه لسيل رقيق من الدم تنضح به يده اليمنى ، حينئذ بدا يبكى ويولول ـ كمن دهمه ألم شديد ـ ويهز يده ، ويرتعش وينوح بحرقة ونهنهة حتى خر على شفتيه كمعجون الأسنان ـ عودان رقيقان، لونهما بين الرمادى والأزرق من مخاط لزج مبرقش بنتف من « الكنانة » .

قامت القيامة داخل الشقة وأقبلت نفيسة هانم تهرول فى قميص النوم. (قال له ذهنه ـ رغم بكائه ـ أنت تعرف هذا القميص) وفى قدميها شبشب تتوسطه كرة خضراء من وبر الأرانب المنفوش ، وقبض على ركس وأغلق عليه باب حجرة النوم .

أخذت نفيسة هانم فرغلى برفق من يده اليسرى ؛ وسحبته إلى الشقة ، تربت بحنو على ظهره وكتفه وتحثه على أن يكف عن الصراخ والبكاء ، وأسرعت فأتت له بقطعة من القطن مبللة بالميكروكروم وسقسقت بها على الجرح وغطته بقطعة أخرى نظيفة من القطن ، ربطتها بخيط .

أفاق فرغلى قليلا فوجد نفسه يتوسط كنبة وثيرة يغوص حذاؤه فى سجادة جميلة ، ينظر إلى المنضدة الواطئة أمامه وسطحها الرخامى ،

فلا تستقر عيناه على تمثال صغير لامرأة تسوق وهى عارية (هل هذا معقول ؟) نمرا ممطوط الجسد مخالبه من نحاس أصفر . فرغلى لا يزال يهز يده ويتحسسها بيده الأخرى ويحاول سحب عمودى المخاط إلى طاقتى أنفه . .

فتحت نفيسة هانم بنفسها البوفيه فى حجرة الأكل ، وأخرجت له طبقاً من الشكرلمة المحشوة بجوز الهند ، وأخذت تحثه على أن يأكل منها فأخذ واحدة وضعها كلها فى فمه ، قالت له من قبل أن يبلع « خذ ما تريد » ومدت له قطعتين فأخذهما ، ودس يده تحت السويتر حتى بلغ جيب الجلابية فأسقطهما فيه ، قالت له وهى تضاحكه :

ــ كده . . كده . . مش خايف توسخ جيبك ؟

فابتسم لأول مرة ، إحنا فى إيه ولا فى إيه ، كيف يقاس إلى خوفه خوف تافه مثل هذا ؟ إنها لا تفهم أنه أكل القطعة الأولى ومضغها وازدردها فى حياء حرمه بعض اللذة ، أنه يريد أن يخلو بنفسه ليأكل على مهل القطعتين الباقيتين . .

كان يرى الشكرلمة وراء الزجاج فى دكاكين الحلوى ، ولكنه لم يذقها قط ، يسيل لعابه حين يرى شرائح قشر البرتقال تزين سطحها . .

وكانت نفيسة هانم قد زارت منذ أيام قلائل صديقة لها ، تقتنى هى الأخرى كلبا ، وسمعت منها ــ وسط لغو كثير ــ تفاصيل نكبتها . عض كلبها هو الآخر صبى الجراح عضة كأنها خدش ، بسيطة تغتفر ، استرضت الصبى ، ودفعت له نصف ريال ، مع ذلك ما كاد يؤوب إلى إلى أهله حتى جاءت الأسرة كلها ــ رجالا ونساء ــ يدقون بابها ، لهم عتاب بلغ حد السباب ، هذه المرأة المتشحة بالسواد لا تتكلم إلا إذا

دارت إلى جنب ولمث أطراف إزارها كأنها ديك رومى ينفض جناحيه ، خدها العريض الأملس ، الناتئة فيه عظمة الفك ، إذا صعرته أصبح من أدوات القتال ، لها نظرات تجذب غريمتها من شعرها فتوقعها وتمرمغ بها الأرض لم يبق إلا أن تدوسها بالأقدام وتنزل يدها على ظهرها بلكمية رنانة يطن لها العمود الفقرى طنيناً يصل إلى المخ ، كل هذا وسط كلام سريع ، يقطعه « ياحبيبتى » ، « يانور عينى » ثم لما رأوا مظاهر الغنى انقلب العتاب إلى عناد وصلف وذهبوا بقضهم وقضيضهم إلى قسم البوليس ، وجاءها جندى يطلبها إلى التحقيق ، وحرر لها محضراً عن تهمة التسبب فى جرح الصبى - وهى جنحة - ومحضراً آخر عن تهمة حيازة كلب غير مسجل - وهى مخالفة - والغرامة فى الجريمتين جسيمة . يضاف إليها تعويض المجنى عليه ، ولكن كل هذا يهون ، ليتهم طلبوا ضعفيه ولم يقبضوا على كلبها ويرسلوه إلى الشفخانة .

إنها لم تنعم بنوم منذ تلك اللحظة ، فهى تعلم أن أهل الشفخانة لاشفقة ولا شفاعة عندهم . إنهم يعدمون ضيوفهم جزافاً ، بغير سابق إنذار ، فجعلت تذهب كل يوم إلى الشفخانة ، لاتتخاف ، تحمل لكلبها الطعام وتطمئن على صحته وتوزع البقشيش ، سيدوم ذلك خمسة عشر يوماً ، لاتريد أن توكل محامياً إلا بعد أن يخرج كلبها أولا لأنه فى حقيقة الأمر - هو المتهم لاهى ، وقد تذكرت فيما بعد أن الأسرة « أخذتها فى دوكة » وأن البوليس « كروتها » ، فلم تستطع أن تقنعهم بأن الصبى كان يمشى بالقبقاب يدق الأرض متفكراً بالضجة التى يحدثها وأنه هو الذى استفز الكلب وشاكسه ونبح فى وجهه فكلبها معذور إذا عضه ، إنه يدافع عن نفسه ، والدليل أنه لم يعض أحداً من قبل ،

فهو أصيل حسن التربية ، إنها تعتزم استدعاء شهودها أمام المحكمة ..

كل هذه المتاعب تجسمت لنفيسة هانم وهى تعالج فرغلى وتنظر إليه لتعرف هل هو قادر على أن يفعل بها مافعله الآخرون بصديقتها ..

لم تستطع الإجابة على هذا السؤال لأنها تؤمن أن فرغلى من طبقة ماكرة مخادعة لا يؤمن لها جانب،كانت خشيتها سبب مبالغتها فى إكرامه، ولكن قلبها - وهى أم - لم يخل مع ذلك من العطف البرىء الخالص عليه ، إلا أنه كان عاطفة عابرة بكاء تكاد تختنق وسط دنيا الأنانية والمصالح . أخذت تسأله عن إسمه وأسرته وماذا يأكل ويشرب ، ثم أقسمت له بأحر الأيمان أن ركس كلب ظريف وأنه يلاعبها كثيراً فيدغدغ يديها - مثلما فعل معه ! - فلا تبالى ، بل قد يعضها فى بعض الأحيان إذا أجبرته على شرب الدواء ومع ذلك فعضته هينة لا تؤذى.

وأصرت نفيسة هانم أن تؤاخى من فورها بين ركس وفرغلى وعادت بالكلب بين أحضانها وهى تربت على رأسه وتناغيه ، والكلب قلق يهز ذيله ويتلوى .. هو كلب « كانيش » من هذا الصنف من الكلاب الذى ينفرد وحده بقبوله أن يصبح بين يدى الإنسان مسخة مضحكة ، فحتم من أجل أن يتم جماله أن يقطع فى الصغر ذيله ، ثم يقص شعره كله إلا أجزاء عند رأسه وركبه فكأنه بهلوان فى سيرك ، أكثر ما يخيف فرغلى أن عينيه غائرتان مختبئتان وراء حلقات من الشعر متهدلة أمامهما ..

وألحت نفيسة هانم على فرغلى أن يربت هو أيضاً على الكلب فرفض وتمسك بخصامه ، والعجيب أن ركس بدأ يأنس له ويتشممه ، قالت له نفيسة هانم :

ـ أرأيت؟ ألم أقل لك؟ لو أنك لم تخف منه أول الأمر لما هاجمك . .

وقامت نفيسة هانم من جديد وعادت وهى تدس فى يد الصبى نصف ريال . فهذه هى تسعيرة الإرضاء التى حددتها صديقتها ، ولما رأته لا يبالى أن قدميه « تلقان » فى حذائه منحته أيضاً حذاء قديماً من أحذية زوجها ، وقالت له وهى تشيعه إلى الباب :

ـ لو أعرف أن فيه حاجة بطالة كنت وديتك بنفسى للحكيم ، أنت زى ابنى ، إن لزمك أى شىء ابق تعالالى . .

جاءت العضة سليمة ، واندمل الجرح فى أقل من يومين ، ولكن فرغلى انتابته من جديد نوبة الملاريا فلم يستطع أن يغادر ركنه أياماً ، ترتفع حرارته إلى مافوق الأربعين فتقضقض عظامه ، ثم تهبط فيسيل له عرق بارد كالثلج تصطك له أسنانه ، لا يتناول دواء ولا يعرف طبيباً ، فأجساد هؤلاء الناس تعالج عللها بالصبر وتركها للزمن وحده ، لم يكن المرض هو مشكلته التى تشغل باله ، بل أكبر همه انقطاع أجره ، وبرمه بالوحدة ، وتخلفه عن العمل ، إنه يأنس لدكان المكوجى ، له رائحة محببة ، حين تمشى المكواة على القماش النظيف المبلول ، له فى الشتاء دفء لذيذ ، وحتى فى الصيف لا يضيق به أصحابه ذرعا ، فإنهم إذا لفحتهم الشمس حين يخرجون إلى الطريق يجدون فيه حينما يعودون إليه راحة فى بخاره الرطب ، وإن كان ساخناً قليلا ، تنكشف عند أسرار كل الزباين ، فلا شىء يفشيها مثل استعراض ملابسهم الداخلية ، هذه السيدة الأنيقة لا تنتهى فساتينها ، تتبدل موسماً بعد آخر . شتان بينها وبين

أقمصان زوجها المرقعة البالية ، وبدله الجرباء اللامعة باقية لا تتغير سنة بعد أخرى ، الله أعلم بفنلاته ولباساته لابد أنها كنافة ، من هذا وحده تعرف من أى معدن هذه المرأة ، ومن أية عجينة هذا الرجل ، لا عجب إن كان دكان المكوجى أحب المنتديات للخادمات الصغيرات ، يجدن فيه زواجا حلالا ، أو غراما يسلبهن صيغتهن ، أو يحرضهن على سرقة أسيادهن ، أو يعرفن وحدهن - بعد الهجر - متاعب الحمل والولادة فى الحرام . .

ارتد فرغلى للدكان وعادت قصة العضة ، وأجمع كل من حدثه أن نفيسه هانم ضحكت عليه بنصف ريال ، وأنه كان يستطيع أن يبتز منها جنيهاً كاملا على الأقل ، وأنه عبيط متدروش ، فلم يأبه فرغلى لكلامهم وإن رسب فى أعماق قلبه . .

وجاء أول الشهر ولم تكمل له المائة والخمسون قرشاً ، ينقصه نصف جنيه ، عادت إلى ذهنه كلمات نفيسه هانم وهى تشيعه إلى الباب (أنت زى ابنى ، إن كان لازمك أى حاجة تعلالى) لم يذكر فرغلى لأحد ما ينوى عمله ، وذهب إلى العمارة يحث خطاه التحريض القديم من زملائه وتقدير عضته بجنيه كامل ، إنه لن يطلب جنيهاً بل نصف جنيه فقط ، لا زكاة ولا إحساناً ، بل قرضاً يسدده عندما يفتح الله عليه ، هذه هى نيته وإن كان يطمع أن تعطيه نفيسه هانم جنيها كاملا هبة منها إليه ، إنه صاحب فضل وسابق معروف ، إذ لم يطالبها بتعويض ، ولم يذهب إلى البوليس .

صعد فرغلى السلم اللولبى وقال للطباخ :

ـ من فضلك قل للست فرغلى عاوز منها نص جنيه لأنه معذور فى المبلغ ده ، وتحسبه دين علىّ إذا عازت ..

دخل الطباخ إلى الشقة وسمع فرغلى كلاما وصله أول الأمر واضحاً « مين ! عاوز إيه ؟ خمسين قرش ؟ » ، ثم هبط إلى همس إلتقطت منه أذناه « أنت مغفل ، كنت اصرفه قول مافيش حد هنا » ثم انقطع وعاد الهمس من جديد ..

كانت أول فكرة لمعت فى خاطرها أنها ستقع فريسة لاستغلال دنىء لا تعرف كيف ينتهى ، وساءها أن الصبى يفتح الموضوع من جديد مع أنها ظنته قد أدرج فى الأكفان ، ترددت لحظة ، ثم إذا الخوف من اتهامها بالعبط والغفلة والاستخذاء ، قد غلب فيها نازعا كريماً كاد يهم بالقبول ، وعاد الطباخ يقول له :

ــ الست بتقلك معهاش فلوس دلوقتى ، ولما يجى سعادة البيه ح تبعتلك نص ريال كمان فوق الأولانى ، ده اللى تقدر عليه .. مبسوط يا عم ؟

نزل فرغلى السلم على مهل ، مطأطىء الرأس ، كسير الخاطر ، يتعثر فى خجله ، وحين هبط إلى الطريق رفع نظره إلى الشقة ، وسار وهو يقول لنفسه :

ــ إيه يا خويا الناس دول .. ما يحنوش على الواحد إلا إذا الكلب عضه ! ...

سوسو

وضعت سماعة التليفون وأنا أشعر بضيق شديد ، إنه صديق بسيونى عبد السميع ، يتحدث إلى كعادته إذا غبت عنه يوماً أو يومين حديثاً كله ضحك ومرح ، مع أنه لا يخرج عن السلامات وكيف حالك ، وماذا تصنع ، وزاد ضحكه وهو يقول :

ـ لا اسألك عن السبب فأنا أعرفه ، أراهن أنك ذهبت إلى طبيب جديد تصيدت اسمه من حديث عابر بين أناس لا تعرفهم ، فأنت موسوس ، آذانك مصابة بحول ، فهى مطرطقة ، كأنها إيريال راديو خربان ، وأراهن أن هذا الطبيب وصف لك دواء غالياً طبعاً ، وإنك لم تترك صيدلية واحدة دون أن تدخلها لتبحث عنه فلا تجده ، وعدت من جولتك الخائبة يبهظك حمل ثقيل من أدوية أخرى لست فى حاجة إليها ، أشكال وألوان من الصابون الممسك والكولونيا ، ياأخى دعك من الوهم صحتك زى البمب ، كثرة نقودك سبب تعبك لا تدرى فى أين تنفقها . .

لم تكن السخرية ، فهى مبلوعة بين الأصدقاء ، ولا الاستهزاء من عيوبى ـ ولست غافلا عنها وإن كنت لا أستطيع التخلص منها ـ سبب ضيق ، وهذا كلام ـ فى نهاية الأمر ـ اعتدت سماعه من بسيونى ، ولكنى شعرت بالضيق حينما قال لى :

- اسمع . . لا تنس يوم الجمعة - بعد باكر - إنك عندنا ، سنحتفل بعيد ميلاد سوسو ، سيتم أربع سنوات كما تعلم . .

والواقع أنى كنت اترقب عيد ميلاده ، ولكنى تناسيته حتى خيل إلى أنى نسيته ، إن محسن - وهذا هو اسم سوسو - لا يغيب عن ذاكرتى ، وفى بعض ساعات وحدتى ، أفكر كثيراً فى أمره ، وأفكر أكثر فى أمر أمه وأبيه ، ولكن أى هدية أحملها إليه هذه المرة ؟ لا يقصد بسيونى بحديثه إلىّ أن يستهدينى هدية ، فليس بيننا حساب أو تكليف ، وهو أبعد الناس عن الطمع والدناءة ، أنه يحب أن أكون معهم لنضحك . . ونمرح . . ونذكر أيامنا الخالية ، ومع ذلك فهو يعلم أن هديتى ستكون أغلى هدية يتلقاها سوسو فى عيده ، فى العام الأول حملت إليه عربة أطفال وبطانية وملابس ، أشياء نافعة لأب مستور الحال ، وفى العام الثانى سريراً صغيراً ، وفى العام الثالث دباً كبيرا ، هدايا توافق نمو الطفل ، ولكنى أجد نفسى هذا العام فى مأزق ماذا اشترى له ؟ يهدى الطفل فى مثل سنه . . دراجة لها عجلات ثلاث ، فهل اسوى بين سوسو وقرنائه ؟ . . لا . . لا . . وإن كنت اعتقد مع هذا انى لو فعلت لتقبلها منى بسيونى مرتاحا وبترحاب وشكرنى عليها وحمد لى رقتى ، ولكنى أخجل لو دخلت على سوسو والمجتمعين حوله وفى يدى دراجة ، ماذا سيقولون ؟ . . سينطبق علىّ المثل : « جاء يكحلها عماها » سأصب ماءاً بارداً على الحفل . . سأخلع القناع لتبدو من ورائه بشاعة الواقع . . لا . لا . . لن أخضع لأوهام صديقى ولا لغفلته ، إن هذا الحب الأبوى له حدود ينبغى أن يقف عندها ، سأهرب من المأزق

واشترى له طاحونة ضخمة تضاء بالكهرباء وتدور اذرعتها على عزف لحن راقص ينبعث من داخلها ، فهذه هدية تنفع سوسو .. هل سيستطيع أن يدير عينيه وهو راقد على ظهره يتتبع اذرعتها تتهادى أمامه ؟ هذا غاية أملي انفع هديتي ..

لما بلغنا سن المراهقة بدأنا نعبث ، لا أزال أذكر ليله أن شربنا في حانة أول كأس من البيرة ، وتمتعنا معه بأول سيجارة وأغرانا قواد - ونحن فريسة سهلة - وجرنا إلى ماخور يقع في أعلى الحان الذي كنا نجلس فيه ، كل الآثام في ليلة واحدة ، بين كل اثم واثم خطوة يسيرة ، وتم كل شيء في عجلة ، لم أفهم شيئاً ، وافترقنا لا أدري كيف . وفي الصباح كان في روحي غثيان . . وهم . . وكرب شعرت إنى تلوثت وأن هذه النجاسة قد لصقت بي أبد الدهر ، فلا استطيع التطهر منها ، ووثقت بأنى أصبت بأخبث الأمراض ، كم وددت حينئذ لو أن الزمن عاد إلى الوراء فنحى من جديد ليلتي الماضية صفحة بكراً ، ولما جاءني بسيوني كادت الدهشة تعقد لساني ، وجدته لا يزال يضحك ملء شدقيه ويضرب كفاً بكف ، يروى لي أموراً يراها مضحكة وأراها مخجلة جرت بينه وبين صاحبته الحبلى ، وكان لكلامه وقع السكين في قلبي جعلني أحس أنى اهرب من شيء ، أريد أن اغلق الأبواب عليّ ، أغلقها بالأخص دون همس خفيف يوسوس إليّ « الست تتمنى أن تكون مثله . . ؟! »

والغريب أننا تواصينا على غير ما كان ينتظر أن نكف عن هذا العبث القذر ، وأن لا نعود إليه وإن كنا قد عرفنا مكانه ، والخشية أن

تقودنا أقدامنا إليه رغم إرادتنا ، فنحن أولاد عقلاء يشهد الجميع باستقامتنا ، وتواصينا أن نجتهد فى المذاكرة حتى نفرغ من إمتحان التوجيهية ، فإن بسيونى فتى فقير ، البذلة التى دخل بها سنة أولى لم يخلعها بعد ، له أسرة كبيرة لا ينوء بهمها ، كل فرد فيها ـ رجل وامرأة ـ يجاهد فى الحياة ليجد رزقه ، فإن نجح وألتحق بعمل ، فإنهم أن لم يطالبوا منه العون وتنهدوا لخلاصهم منه أو لخلاصه منهم .

وكنا بطبيعة الحال لم ننس النساء ، حديثنا لا يدور إلا عنهن ، ومع احتفاظنا بعفافنا بدأ ذوقنا يتحدد ، أما أنا فقلبي إلى بنات البلد لابسات الملايات اللف ، القصبة كفص الخاتم ، والبرقع ستار مهتوك ، حمر الكعاب والثغر والأظافر ، سمر الأنامل ، ممشوقات القوام ، مستقيمات الأكتاف ، إذا كانت الكلمة كلمتى قضينا السهرة فى شارع محمد على أو فى السيدة زينب ، لم تلتفت منهن واحدة إلىّ ، أما بسيونى فهو بغير سعى منه تصطفيه ـ ونحن نكاد نتلازم ـ فتيات الأثرياء وزوجات رجال أفاضل ، لا أدرى كيف يعثرن عليه أو يعثرن به ، أصبح تليفونى وقفا عليه لا ينقطع اتصالهن به ، ويدوم الحديث الواحد ساعة أو أكثر لو سجلت حديثه فى ورقة .. وقرأته .. لما خرجت بشيء ، تحسبه كلام مجانين ، إنما هو ضحك ، ومعابثة ، وتنكيت ، ومط كلام أعجب حين يبدأ حديثه مع واحـــدة منهن بتقليد مواء القط : لأنه يسميها « بسبس » فإذا كانت النوبة عليه ذهبنا إلى المشارب الواقعة على ضفاف النيل تحت الأشجار فى أركان الظلام لتلقى إحدى صديقاته ، دورى دور النديم ، كل منهن تعلم أن لها غريمات كثيرات ، وتسعى أن يخلص لها وحدها ، وهو يعدهن جميعاً ويتنقل بينهن كالفراشة ، وبعضهن

تطالب منى أن أبذل نفوذى عنده من أجلها ، ولكنه لا يريد أن يتقيد . . يقول لى إن هذا العبث البرىء هو لذته التى يغرق فيها لأذنيه ويكفيه وحده ، والله أعلم بصدقه ، لعله يريد أن لا يجرح شعورى ، فهو يخفى عنى ما يحدث له بعد هذه المقابلات التى احضرها فى بعض الاحيان وبخاصة إذا طلبته واحدة منهن فى غيابه فرددت أنا عليها فقفلت السكة فى وجهى اسأل نفسى « ما الذى يجدنه فيه ؟ » . . وأطيل النظر إلى بسيونى . .

هـذا الفتى رغم إقامته الطويلة فى العاصمة تحسبه لم يغادر قريته ، ليس له قوام يخلب البصر ، بل جسمه مدكوك ، قدماه صغيرتان بالنسبة لحجمه ويداه مطخطختان ، أيمكن القول أن وجهه جميل ؟ أظن لا . . أنف ضخم وعيناه ضيقتان ، إذا جلس يأكل لم يبال بالأناقة ، ولا عرف كيف يمسك السكين ، ولكنه حين يتناول الفاكهة أحس أنها تنطق لأول مرة بالمعنى الذى ركبه الله فيها يوم خلقها ، أنه لا يطلب اللذة ، لم أسمعه مرة يتشهى شيئاً ، ولكنه حين يأتيه هذا الشىء عفوا تحسب أن هـذا الفتى القنوع كان يهفو له من قديم ، وأن حياته متوقفة عليه ، رأيته مراراً وهو ينام ، على شفتيه إبتسامة طفل ، وما إظنه عرف الأرق أو أهوال الأحلام . ولو أصابه وسألنى لوجد فى خزانتى للعليل أكثر من دواء »

لقيت بسيونى فى السنة الأولى بالمدرسة ، كان يجلس بجانبى فتلازمنا ، إن كنت أدركت فيما بعد ماذا يجذبنى إليه فلا أدرى إلى اليوم ماذا يجذبه إلىّ ، عرفت أسرته وخالطتها حتى أصبحت كفرد منهم . .

ونال بسيوني شهادته بعدى بسنة فقط ، سقط حين تقدم للإمتحان أول مرة ، إذا قلت إنه كسول فلا أتجنى عليه ، وقد يقول غيرى إنه ذكاءه ليس مضرب المثل ، ثم ما لبث أن التحق بوظيفة كاتب في إحدى الوزارات ، لم أسمعه قط يتململ من عمله أو من سوء حظه ، ولم أر قط في خبايا نظرته أو في تلافيف كلامه ما يدل على أنه ينفس علىّ أن السعى وراء الرزق ليس مشكلة عندى .

وبعد قليل جاءنى ذات يوم يقول إنه سيعقد زواجه على بنت عمه زينب في الأسبوع القادم .. هكذا ، أنني أعرف زينب، لم ألق إليها قط بالى مع أنى لا أقابل امرأة إلا خصتها خصاً دقيقاً ، وكيف أعيد النظر إليها وهي فتاة عجفاء ، جلد على عظم ، محمرة العينين كأنها مصابة بزكام مزمن ، فهي حين تتكلم تتريث بين حين وآخر لتسلك أنفها فتلعب أرنبتها وتكاد تحس بالهواء يخرج أيضاً مصفراً من أذنيها ، لها ضحكة بلهاء تكشف عن أسنان غليظة ليست بيضاء كل البياض ، لها « روب دى شامبر » تعتز به فلا تقابلنى إلا إذا جرت لحجرة النوم وعادت وهى تلبسه وتظل حائرة ماذا تفعل فى ستر ركبتيها ـ فهى تجلس مفرشحة ـ تغطيهما مرة بطرفه الأيمن ومرة بطرفه الأيسر ، وتحسب رغم الحياء أن هذا دلال وفتنة . . وسألت بسيونى :

ـ ولكنى لم أسمعك مرة تقول لى أنك تحب زينب أو أنها تحبك ، ولم أسمعك قط تقول إنك تنوى الزواج بها ، كنت أحسبك تعاملها كأنها أختك فأنتما شببتما وتربيتما معاً . . كما فهمت منك .

ـ ياعم ، خل زيتنا فى دقيقنا ، من لها غيرى ؟

ـ ولكن فى يدك عشرات أجمل منها وأحسن ثقافة وأكثر ثراء ، كل واحدة تتمنى لو تزوجتك . .

ـ أنا لا أخلط بين العبث والجد ، لهذا ميدانه وهذا ميدانه .

ـ ولكن كيف ستعيش مع زينب ؟

ـ ما معنى هذا السؤال ؟ ماذا جرى لعقلك ؟ كما يعيش أى فتى مع أية فتاة . .

ـ ألا تميل إليها ولو قليلا ؟

ـ أقول لك الحق ، أنك صدقت ، لم أحدثك عنها قط ، لأننى لم أنتبه لها أنا كذلك ، لعل السبب ـ كما تقول ـ أننا كبرنا معاً ، ولكن منذ هدانى الله إلى خطبتها أراها خفيفة الدم . واسعة الصدر ، لاتعرف النكد ولا التنكيد ، إنها حنون ، طيبة ، ست بيت ، إنها لا تحب الأولاد فحسب ، بل تحب القطط والكلاب ، وقد رأيتها تعالج قطة وتبكى عليها كأنها بنتها . .

ـ يعنى أفهم من هذا أنك فرحان بها ؟

ـ جداً جداً . .

وودع بسيونى حياة العبث واختفى عن صديقاته جميعاً ، وأصبح يلازم زينب ، يخرجان معاً ويدخلان معاً ، وخبرت معه كثيراً من أمور الدنيا وتلحلحت ، علمها شرب الدخان ، لو استطاعا لجعلا لهما فما واحداً يأكلان منه ، حضرت مائدتهما فإذا هى تناوله لقمة ، ويناولها أخرى قبل أن يبرأ شدقاهما من تكوره ، بعد قليل امتلأ جسم زينب ، برز نهداها وتبين خصرها ، وجللها من رأسها إلى قدمها إشراق

عجيب ، لمع ثغرها وشعرها وصفت بشرتها ، أصبحت تجلس تضم ركبتيها ولا تعبث بطرف « الروب دى شامبر » . نفسها مفتوحة للأكل واللهو والمرح ، أعدت تأملى لها ، هذا الزغب الخفيف فوق شفتها جعلنى أذكر سلة من الجوافة يغطيها « علو » برسيم قادمة لتوها من الريف ، تحمل إليك كل عطور الحقل ، شذى لا تجده فى فاكهة الأغنياء . .

ولما بدت عليها علامات الحمل وثقت أن الطبيعة جمعت ـ وكأنما عن عمد ـ بين عنصرين سليمين صالحين للبقاء لتهب الدنيا إنساناً جديداً تعمر به الأرض ، ووضعت زينب فى تمام الشهر التاسع من زواجها ، فى البيت لا فى المستشفى ـ ولادة سهلة لم تخلف تمزقاً أو حمى ، وضعت مولودا ذكرا أسماه أبوه « محسن » وهو إسمى احتفالا بصداقتنا وتدعيما لها ، ولما رأيت محسن لأول مرة وأمه تغير له لفافته أبصرت طفلا تنضح منه الصحة ، ورق قلبي لمنظر معصمه البض وأصابعه النحيلة ، ولكننى أحسست بانقباض لرؤية ساقيه مرفوعتين على بطنه كساق الضفدع وإن كنت أعلم أن هذا هو شعور كل من يرى وليدا جديدا . .

وتناولته بين ذراعى ، أقول لنفسى وأنا أحضنه وأقبله ، سأكون له ـ كما عند المسيحيين ـ اشبينا ، فهو يحمل إسمى ، سأعنى بأمره ، وسأظل أرقبه وأقارن بين نشأة هذه البذرة الصالحة ونشأتى ، أنا الذى ولدت من أب شيخ وأم تقضى معظم أيامها فى المستشفى ، ورثت أمراضا وعللا وخجلا يحول بينى وبين الزواج ، ويجعلنى ـ رغم مظاهر النعمة ـ مضاعا فى الحياة ، لا أدرى على أى جنب أتقلب . .

ومضت الشهور الأولى ومحسن ينمو بسرعة على لبن أمه ، ولكنه حين بلغ العمر الذى تسند فيه الأم طفلها إلى وسادة فيستقر جالساً ، لم تظفر زينب من محسن باجتياز هذا الامتحان ، إذ عاد وسقط على ظهره ، ولما بلغ السنة الأولى كان لايزال عاجزاً عن أن يصلب عوده ، لا يتناول شيئاً بيده ، ولما بلغ منتصف السنة الثانية لم يكن قد نطق بكلمة واحدة ولو مقطع واحد ، لم ينطق بكلمة ماما أو بابا ، يبول ويغوط فى ملابسه ، ولا يأكل إلا بالملعقة فى يد أمه . .

بدأ الشك يدب فى قلبى ، ولكننى لم أفعل شيئاً ، غلبتنى حيرة مستبدة شديدة من أمر أمه وأبيه ، لم ألحظ فى بسيونى أى قلق ، بل هو يدخل ويخرج ويتحدث ويذكر محسنا كما يذكر كل أب إبنه ، كأنه عاجز عن أن يرى هذه النكبة التى نزلت به ، أما أمه زينب فقد رأيتها أكثر من مرة تناغى سوسو وتناديه ، فلا تظهر من عينيه بأقل نظرة فيها أدنى ذرة من الفهم ، ومع ذلك تقول إن سوسو ذكى ، وأنه يفهمها وهى طائرة .. حدث لابن أختها أكثر من هذا ، ثم إذا هو بين يوم وليلة يمشى بل يجرى ويتكلم فلا ينقطع عن الثرثرة ، وبعد سنتين كان لا مفر من أن نستشير طبيباً ، حملناه إلى أشهر أطباء الأطفال ، وكان رجلا شريفاً صريحاً لم يخف عنا الحقيقة . . قال :

ـ هذا الطفل مصاب بمرض يقال عنه « المغولى » معدوم القدرة العقلية ، وهذا داء لا علاج له ، فلا تتعبوا أنفسكم ، ووفروا نقودكم واتركوه لرحمة ربه واصبروا . .

وهكذا حل فى دنيانا الصغيرة مسخ غريب ، قطعة من اللحم تنمو

وتكبر وتتلوى ولا شيء سوى ذلك ، لها رأس وعينان وفم وأذنان ، ولها ساقان وذراعان ، ولكنها قطعة من اللحم ولا شيء سواها ، كنت أنفرد به وأنحنى عليه وأناديه يمينا ويسارا ، وأركز نظرتى على عينيه ، ولكن لا شيء ! كم كنت أتمنى لو أنه عض يدى مرة ، أو بكى من إلحاحى عليه ، ولكن لا شيء ! قطعة من اللحم ولا شيء سواها ، كنت أشعر عنده بشيء من الخوف والرهبة ، أقف مشلولا مسمرا كالعصفور أمام ثعبان ، أسأل نفسى : لماذا ؟ وما معنى هذا ؟ ماذا يدور داخل هذه الجمجمة ، أىّ يد مجهولة تكتم عواءها ؟ هذا الجسم المتحرك يمثل عندى خنق جبار لقوة جبارة ، فى روحى زلزال شديد ، كأنما الدنيا وقوانينها تتهاوى من حولى ، من هذا الذى يحتمل هذا الصدام - أو الجمع ! - المجسم بين الوجود والعدم ، وأنا اشبهه وأنا الذى ظننت أن سأجد فيه نشورا لحياتى . .

لم يطرق الحزن أو الألم قلب أبويه ، بل قبلا الأمر الواقع كأنه حدث مألوف منتظر ، وجرت حياتهما ، لا عن تمثيل أو تآمر ، على أن محسن موجود وإن كان غائباً ، أو على أنه غائب وإن كان موجودا . .

رجعت إلى الطبيب وحدى أسأله : هل يستطيع المال أن يفعل شيئاً اسوسو ، إننى مستعد للسفر به إلى أوربا . . فأجابنى :

- لا تتعب نفسك ، هذه الكائنات لا تعمر طويلا كأن الطبيعة تستيقظ من غفلتها وتمحو آثامها . .

وقفت متردداً ، على لسانى سؤال لا أجرؤ على النطق به :

هل هناك وسيلة للتعجيل بالموت ؟ أهو حلال أم حرام أن نسقيه دواء يقضى عليه الآن ؟

وكأنما فهم الطبيب ما يدور فى خلدى ، فسكت عنى قليلا ثم قال :

ـ دع الأمور طبقاً لمشيئة الله ، هذه أسرار لا نعرفها ، ونحن إزاء الحياة ملزمون باحترامها ، حتى ولو كانت مسخا . .

ولكن السؤال لم يبرح خاطرى بعد ذلك . .

اشتريت الطاحونة ، وفى الطريق طلبت من السائق أن يقف أمام حانة ، ونزلت وشربت كثيراً على غير عادة ، سأكون بذلك أقدر على مشاركتهم الضحك والمرح . .

وصلت فوجدت البيت قائماً قاعداً ، زحام وذهاب وجيئة ، لا ينقصنا إلا جندى المرور ، كل أسرة بسيونى مجتمعة ، رغم انشغالهم بالحديث والضحك ، عيونهم مركزة على مائدة الأكل ، فوقها طورطة انغرزت فيها أربع شمعات ، وحولها أكداس من الحلوى ، إننى أعرف ـ وأعاف ـ هذا الجنس الذى يلتهم أربعين دستة من الجاتوه وعشرين أقة من البتى فور ، وأنا أحس بغثيان لمجرد رؤية ألوانها . .

ودخلنا على سوسو ، إنه يرتدى جلباباً جديداً ، لا يخفى سرواله المصنوع من المشمع ، وحملته أمه بين ذراعيها وجئنا به إلى غرفة الأكل ، وتجمعنا حوله نضحك فى وجهه ، فينا من جرأ أن يقرص خده ، أو يربت على رأسه. أو يدغدعه فى بطنه أو عنقه ، وسوسو كشيخ الطريقة بين الذاكرين ، رأسه يتطوح كأنما أخذته الجلالة ،

ومدت الهدايا ، وعرضت عليه واحدة واحدة ، وأضاءت الطاحونة ودارت ، أربع فتائل يتثاءب نارها أمام عينى ، يريد أن يقفز منها شيطان مارد يلتهم الأرض ، وبلغ الحفل ذروته ، وأدرت رأسى لا أرى من يطفىء الشموع ، وانتبهت على التصفيق ، وهجم بسيونى على الطعام يحشو فمه ويضحك حتى يكاد يختنق يطرد سعاله بقايا الجاتوه على جوانب فمه ، فيجمعها بأنامله ويعيدها إلى طرف لسانه ، كدت أحس أننى أكرهه . .

وأردت أن أريح زينب من حملها لتفرغ إلى ضيوفها ، وحملت سوسو بين ذراعىّ ، وزاد التزاحم ، فوجدت نفسى تحت ضغط أجسامهم أخرج إلى الشرفه ، أبحث عن الهواء ، فى رأسي طنين شديد ، أن سوسو ثقيل الوزن ، وذراعاى ضعيفتان ، فأجلسته على حافة الشرفة ، واحطته بذراعى ، زاد الطنين . وشعرت بخور يدب فى جسمى ، كادت ذراعى تتراخى ، ولكنى شددت على سوسو ، فنحن فى الدور الرابع ، والطريق تحتنا كقاع بئر عميق ، وشعرت بخوف ، ولكنى بقيت مسمراً فى مكانى ، احتضن هذه القطعة من اللحم ، التى يقام لها العيد . . ، نعم . . إنه بسيونى لا أحد غيره ـ هذا ما اذكره ـ هو الذى جاءنى يكاد يجرى يصرخ :

ـ تعال . . تعال . . لماذا تقف وحدك . . تعال أشرب الشاى معنا . .

وجذبنى من يدى الأخرى جذبة شديدة . . ؟ ! ضاعت المسئولية من أجلها بينى وبينه .

وارتفع الصراخ ، وتكأكأ الجميع على الشرفه يطلون على الطريق تحتنا جثة سوسو ، اصطدمت بالأرض فى صوت كطلق الرصاص : لم أتبين بعد ذلك شيئاً ، إلا بكاء زينب وصراخها ولطمها خدودها وهى تهرول على السلم . . .

اسمعه كأنه يأتى إلى من عالم آخر . . .

مولد بلا حمص

أفاق نبيه جمال من نومه وعقرب الدقائق - كالحشرة العمياء تدب بحذر فى أرض مجهولة - يميل إلى الربع بعد العاشرة ، هذه عادته كل صباح ، ومع ذلك يكون أول خاطر له قوله لنفسه :

- ياه . . ! اتأخرت قوى النهار ده . .

جذبه بعنف إلى تمام اليقظة شعور بخوف مجهول ينقبض له قلبه ، من أجله لا يرتوى جسده من النوم مهما طال ، فهو منذ الصباح متوتر الأعصاب ، رأسه طاستها ساخنة ، إنتباهه جائع جشع ، ما يلبث أن يسلمه للقلق ، والقلق إلى الحيرة - وهذا سر جولاته الدائبة السريعة فى المحافل ودور الصحف أثناء النهار ومعظم الليل حتى أصبح معروفاً بأنه صحفى « ملحلح » ويعشق مهنته . .

سؤال وجواب يترددان بين جوانحه :

- لماذا أنت خائف . . !

- ألا ترى . . ؟ . . إننى خائف من أن يكون قد فاتنى - وأنا نائم - خبر لطشه غيرى ، تبقى فضيحة . . أليس من الجائز أن يكون قد تم

ترتيب إجتماع هام أحيط بالكتمان ، فكيف أصل إلى سره ، تبقى مصيبه لو سبقنى إليه صحفى آخر . .

إننى خائف من أن لا أجد شيئاً اكتبه اليوم ، خائف أن لا تسعفنى قريحتى أو أن اكتب شيئاً سخيفاً ، خائف من التزوير ، لست أنا الذى يزور ، بل أريد خلقاً وإبتكاراً ، أريد تجديداً ، أريد أن أقلب الصحافة المصرية رأساً على عقب ، إنها جامدة ، ميتة ، أسلوبها عتيق ، لابد من الحركة والنبض ، نحن فى عصر الذرة ، المقالات كمواضيع الإنشاء التى يكتبها التلاميذ ، ألا يدركون أن القراء لا يهمهم الرأى بل يهمهم فى المحل الأول الشخص صاحب الرأى . . ؟ كيف هو . . ؟ ماذا يأكل ؟ ما هى أحب الأفلام لديه ؟ هل يقرأ القصص البوليسية قبل النوم ؟ لكل رجل سؤال ، ليس المهم أن تسأل كل من هب ودب رأيه فى مودة الشوال ، المهارة الصحفية أن توجه هذا السؤال لشيخ الأزهر ، إن نشر إجابته نصر صحفى ، وكلامه يلقط عين القارىء لقطاً ، فكيف أظفر بهذه الاسئلة التى تثير إهتمام القراء ؛ وكيف أحدد من يصلح للإجابة عليها فى نظرى ؟ وكيف أصل إليهم فلا يتهربون منى ؟ من هذه الآراء المتضاربة كلها سيبدو مجتمعنا الحاضر فى صورته الصادقة .. إننى أريد أن أكون أنا الذى أرسم صورة الجيل ، أخاف أن لا استطيع عمل كل هذا ، أريد أن توضع تحت يدى إمكانيات لا حد لها . . سيارة بالليل والنهار ، وعشرة على الأقل من السكرتاريين المنتبهين أبعث بهم فى جميع خفايا الأرض ، أريد كارت بلانش من رئيس التحرير . .

وعاد الصوت من جديد فأجابه وقد هدأت حدته قليلا :
ـ أهذا كل ما عندك ؟
ـ أخاف أن ينسانى الناس ، ينبغى أن أكون أمام أعينهم دائماً ، إننى أفهم طبعهم حق الفهم ، ليس المهم أن أعطيهم الأخبار ، فإن غيرى يصنع هذه الأخبار ، أما أنا فدورى دور الناقل لا أكثر ولا أقل ، ينبغى أن أكون صانع خبر ، أخاف أن تمر الأيام دون أن أنجح فى تحقيق مطمعى ، أريد أن أصنع بنفسى خبراً يتحدث كل الناس ، خبراً يتصل بصميم حياة المجتمع ، يكون دلالة على العصر الذى نعيش فيه ، يصلح قاعدة يقام عليها كل تمثال فى كل الميادين . .

الصوت صامت يضن بسؤال جديد ، ولكن نبيه يعرف السؤال المكتوم ، فأخذ يتكلم هذه المرة بشىء من الحسرة ، لقد نزح دلوه بئره فلم يبق إلا ماء أغواره ، يتكلم كأنما يعترف ، مطأطأ الرأس ، أو مسترحماً لظالم :

أخاف أن يفوتنى الحب والاستقرار ، أريد امرأة تحبنى وتفهمنى ، مللت هذا العبث فى حياتى ، فهو لايخدعنى ، بينى وبين ركب من فتيات لا ينتهى ، يدخلن مضجعى طلباً للمغامرة وحدها ، أو طمعاً فى أن أذكرهن فى عمودى ، لم نترك من قاموس الحب والغرام والوله كلمة واحدة لم نقلها فى نغمة الوثوق واليقين ، ونحن نعلم أنه ضحك على الذقون . .

هذا الحديث الخفى يدور فى ضميره تفضحه خلجات خرساء ترعش شفتيه ، وهذه هى عادته حتى حين يخالط الناس ، لايرفع كلامه وردوده المتمهلة عليهم عن حد الهمس المقطع ، كأنما هو بقية مناجاة سابقة تدور

بين جوانحه ، ومما يثبت هذا الأثر في نفوس محدثيه أن سيجارته تتدلى دائماً من ركن من فمه قلما يتناولها بيده ، فترات تريثه شهيق خفيف لشفط الدخان وتعبير عن تلاطم الأفكار في جوفه لا يهمه أن يحسبه أغبياء لا يأبه بهم لهوان شأنهم وقلة نفوذهم ، إنه عي مصاب بالتهتهة مادام يوقن أن طريقته هذه مع المرموقين من رجال المجتمع ونسائه ، ومع المثقفين والفنانين ، القدماء والناشئين إنما هى الطريقة المثلى فى اكتساب ودهم وإعجابهم حين يريد أن يؤثر عليهم بشخصيته ، ويلفت إليها انتباههم ، فيرونه ناعم الملمس ، عميق الأغوار ، جواب البصر ، له مناعة الهية من السفسطة والسطحية ، يؤثر ـ فهو غير متعالم بل حكيم ـ اقناع محدثه بالاستدراج والمحايلة والرفق ، إن بدا شارد اللب فى معظم الأحيان ، فلأنه ـ بدليل الوداعة التى تطل من عينيه العسليتين ، والابتسامة العبقة التى تعلو شفتيه ـ فنان موهوب ، ذهنه غائب فى آفاق عليا لا يرقى اليها عامة الناس ، وكان هو أول من دهش ، ثم انقلبت الدهشة إلى لذة كبرى حين سمع إشاعة تثبت وتروج ، وترددها الألسن بأن دمه خفيف . .

لا ينام نبيه إلا بعد أن يضع التليفون بجانبه على الفراش ، كما تفعل العجائز بقططهن ، وفى الصباح لا يستطيع أن يقوم ليتناول فطوره إلا إذا دق هذا التليفون ولو مرة واحدة ..

وانتظر نبيه فلم يدق التليفون ـ عقرب الدقائق ـ كثور مغمم ملول تديره ساقيه ينتع فى طريق مستقيم مألوف لاينتهى ـ يتعرج نحو الحادية عشرة . أصبح نبيه يلف حوله حلقة من شعره إلى يمين جبهته ، وهذه هى عادته ساعة التردد والحيرة ـ ثم ترك أصبع القلق شعره ، وهبط

إلى قرص التليفون يديره بعبث ، والسماعة غير مرفوعة ـ كأنه يستمطر فى وقت الجدب ..

لا شىء ! هل يبدأ هو الكلام ؟ ومع من ؟ مع رئيس التحرير ؟ ليس لديه شىء يقوله له ، إنه لا يحب كثرة التحكك به ، مع سكرتيرته فى الصحيفة ؟ إنها باقية لا تغادر مكانها حتى يكلمها ، فلتنتظر . . مع مدير الجامعة يسأله رأيه فى إلغاء حفلة الترفيه التى كان مزمعاً إقامتها عقب الاحتفالات الرسمية التى أشادت بنهضة الجامعة وتقدمها ؟ وهل سيظفر منه برد يصلح للنشر ؟ . مع مدير مكتب الآداب ليسأله عن فضيحة نشر قائمة نساء محفوظة بالمكتب والمفهوم أن تكون سراً دفيناً ؟ إنه يفكر الآن كيف يجمع صورهن ليضعها على رأس الخبر .. يبرع الأستاذ نبيه فى صياغة أخباره على النحو التالى : « أمير شرقى تزوج أخيراً من فنانة مصرية يسكر ويعربد فى فنـــدق كبير » ومثلة مشهورة بالرقص الأكروباتيكى طلقت أخيرا من زوجها المخرج تتزوج من محاسب قانونى كان يراجع حساباتها » وألغى حفل كانت إحدى المصالح تزمع إقامته ـ لأنها اكتشفت فى آخر لحظة غلطة مطبعية فى تذاكر الدعوة .. » وهو يعلم ـ ويبتسم ـ أن جميع القراء يفكون هذه الألغاز والفوازير إما لعلمهم بالسر أو بالإلحاح بالسؤال ممن لديه العلم .

دق جرس التليفون فرفع نبيه السماعة خطفاً ، هذا هو زميله الصحفى عبد الوهاب عيسى ، بعد السلامات والتحيات . . دخل فى الموضوع :

ـ جالك خبر أن متولى حسين جات له عزومة لزيارة الصين الشعبية ؟

ـ آه .. عندى خبر ، كان معايا امبارح (والحقيقة أن نبيه لم يكن سمع الخبر ولا قابل صاحبه بالأمس) .

ـ يا بختة عقبال ما يجى الدور علينا ..

ـ الواقع أنا مشغول الأيام دى ، مش قادر أسافر ، جاءت لى دعوة لزيارة المجر اعتذرت عنها ..

ـ أنا رايح أقابل مدير الاستعلامات عاوز يحط اسمى المرة الجاية ..

ـ برضه يبقى كويس ، ربنا يسهل ..

وضع السماعة وقد زاد قلقه ، إن متولى حسين صديقه ، ومع ذلك لم ينبئه بسفره للصين ، ليس فى الصحافة صداقات بل مجرد زمالة ، لا بد أن يعرف سر هذه الدعوة ، إنه لم يتلق دعوة بزيارة المجر ، ولكنه يستطيع أن يظفر بها لأنه صديق أثير لدى الملحق الثقافى ببودابست ، أما زميله عبد الوهاب عيسى فمثال للصحفى الخائب ، يبيض كثيرا ولا يفقس من بيضه كتكوت واحد ..

ودق جرس التليفون مرة أخرى ، هذا هو وكيل وزارة يعتب عليه مقاله بالأمس الذى غمز فيه بسخرية أعمال هذه الوزارة ، وأخذ نبيه يتمتم له :

ـ بس أنا شايف أنتم لو .. بس حلمك وصبرك لو عملتم .. خليك معايا .. أنا شايف أن (....) أوعدك بشرفى مش ح أنشر حاجه تانى إلا بعد أن أتصل بك ..

ووضع السماعة وهو يقول :

ـ سافل ابن كلب ! يتعاظم ويصعر خده ، فإذا هوجم ركع على ركبتيه كالجبان ، والله ان أتركه ، سأهرى لحمه وأسلخ جلده ..

والأستاذ نبيه ماهر فى السخرية والوخز ، لو خلقه الله ماتادورا لأمسك بدل السيفين بابرتين يغرزهما فى الثور ، وحبذا لو كان الثور أيضاً بلا قرون ، إن كل تكذيب أو تصحيح للخبر الذى ينشره لا يمحو أثره . .

دق الجرس ، جرس الباب هذه المرة لا جرس التليفون ، فتح نبيه الباب وهو بيجامته منكوش الشعر ، تتدلى من ركن فمه سيجارة قد بلل طرفها ريقه ، لايزال جسمه يشع دفء الفراش ، فرأى أمامه فتاة ربعة نحيفة ترتدى « جوبا » ضيقاً تضغط عليه بطنها وركبتاها ، وتخفى يديها مفتوحتين فى جيبي جاكته سبور رمادية واسعة متهدلة ، على شفتيها ابتسامة حلوة جذابة ..

ـ الله ! عنايات ؟ ايه الصدفه الجميله دى ؟ أنا كنت لسه خارج . مش كان أحسن تضربى لى تليفون علشان مشوارك مايروحش فاشوش ؟

أجابته وهى تدخل أمامه :

ـ أنا كنت حاسة إنى ح ألاقيك ، كنت خارجة رايحة الجرنال وفى السكة حاجة قالت لى أفوت عليك هنا ..

ـ انتى دايماً تحبى المفاجآت . دى عادتك ..

ـ مش دمها خفيف ؟ أنا أكره الترتيب . على ايه أكلم يمكن وأنا جايه فى السكة تطلع فى مخى حاجة تانية .. مين يعرف ؟ مش كده أحسن ؟

هو يعلم لماذا جاءت إليه. فليس بينهما للتعامل ـ أو للعب ـ إلا هذه الورقة . وأحس بسعادة كبيرة لشعوره بأنه مطلوب يسعى إليه ، ولكنه عجب لغرابة أطوار هذه الفتاة ، فى الصباح أيضاً وعلى الريق ؟ إن هذا الجسم الضئيل النحيف له شهية لاتعرف الشبع ، لصوص الفنادق يطلق عليهم إسم « الفيران » وهذه الفتاة فأر الكتاب والأدباء والصحفيين . كأنما تريد بطريقتها هى أن تؤرخ لأبطال الجيل كلهم . أنها أوتوجراف متنقل عليه توقيعاتهم جميعاً . جاءته مرة واحدة من قبل . وكان يراها فى المجتمعات وحفلات السفارات ويتأمل خفية زجها بنفسها وسط الزحام لتصل لغرضها .. أما للبوفيه (١) أو للشخص الذى تريد أن تكلمه .. يعجبه فيها وثوقها بنفسها ونفى الحياء من حياتها بتة واحدة دون أن تلوث نفسها أو تهدر كرامتها ـ هكذا تقول ، أنها ليست جميلة ، ولكن نظرتها الآخاذة العميقة تأسرك رغماً عنك ، ومع ذلك فإنها تنفى الدلال والإغراء عن هذه النظرة ليبقى لها مظهر أهل الفكر ، يخيل إليه أنها حينما جاءته أول مرة واستسلمت له ، إنما كانت تسعى لمعرفة أخباره ، أو أخبار من يتصل بهم ، إنه يربط بين تلك الزيارة وبين الإشاعة التى راجت حينئذ بأن راقصة كبيرة قد وقعت فى غرامه وأنه سيتزوج منها ، لأنه نشر صورتها فى عموده ، أما هذه المرة فهو لايعرف السبب . هل هذا دليل على أن نجمه فى صعود ؟ ..

إن كانت عنايات تريد أن تسير لهدفها مسرعة فى خط مستقيم واضح ، فهو ـ فى العكس ـ يلتذ هذه المرة بمعايشتها ، ويتمهل ، دلالا منه ، ولأنه فنان لاتقتحم قلعته بسهولة ، بل يشترط للاقتحام جو وانسجام ، ولكن القوة الطاغية المنبعثة من هذه الفتاة النحيفة الضئيلة

كشفته وردته رجلا عملياً يحمد حظه ويؤمن بأن عصفوراً فى اليد خير من عشرة فى بار ..

سألته الفتاة بعد أن انتهى أمرهما :

ـ إنت فطرت والا لسه .. أنا جعانه ..

ـ تعالى نعمل قهوة سوا .. عندى حاجات كثيرة ، جبنة وزيتون وحلاوة ، وعندى ياسى كمان كافيار ، أوعى تفتكرى إنه جالى هدية والله أنا مشتريه من محل فاتح جديد يبيع كمان فودكا مدهشة ..

وجلست أمامه على المائدة وقد نضت جاكتتها ولملمت كميها إلى مافوق الكوعين ، شعرها مشوش ووجهها نضير ..

أراد أن يستدرجها ليعرف منها الأخبار ، ولكنها لم تخبره بشيء . غير أن أذنيه طنتا حين سمعها تقول فى عرض كلامها :

ـ أنا كان عندى إمبارح مشوار لدار الكتب ، ومشيت من العتبة لباب الخلق ، شفت صاحبك عبد الوهاب عيسى جوا مكتبة ، الظاهر أنه لقى موضوع ريبورتاج حلو خالص تعرف ؟ الراجل صاحب المكتبه دى مع أنه مادخلش مدارس رأسه برأس أكبر أديب فى البلد يكلمك عن طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ..

سألها وهو يمضغ ، كأن السؤال لمجرد الدردشة :

ـ فين المكتبة دى ؟

ـ على إيدك اليمين على باب عمارة المؤيد ..

منذ تلك اللحظة عاد نبيه إلى التمتمة والتمهل فى الرد إلى أن فارقته الفتاة وخرج وراءها مسرعاً .

عبد المجيد شعبان ينحدر من أسرة محافظة عريقة ، ولو أن كل نواة جديدة تنشق عند النضوج كالقنبلة فيتطاير بذرها ويتناثر فى مساحات واسعة ، ولا تلبث كل بذرة أن تنمو مستقلة بنفسها وهى صورة مكررة طبق الأصل للأب . أخوة متفرقون ، صلات بعضهم ببعض واهية ، بل تكاد تكون منقطعة ، وهم جميعاً متشابهون خلقاً وخلقاً وإن اختلفت حظوظهم ومشاربهم ومسالكهم ، أسرة محافظة عريقة لأن جميع أجيالها - رغم تفرقها - دارت حول فكرة واحدة ، بيع الحطام. فى أوائل هذا القرن كان السائر فى شارع الخليج المصرى - بالقرب من حارة سنقر - يرى رجلا عجوزاً نحيفاً أسمر اللون جالساً على رصيف مسنداً ظهره لجدار منذ مطلع الشمس لمغربها وقد فرش أمامه على ورق الصحف فى مساحة المتر المربع أو أقل خليطاً بالياً منظماً فى صفوف كأنه رقعة ضارب الرمل ، علب سجائر صفيح ، ملاعق ، أقفال ، مقصات ، مبارد ، زنبرك فونوغراف ، غطاء ساعة ، صواميل ، مفتاح إنجليزى ، حجر نظارات ، منافض سجائر عليها أسماء فنادق وشركات . .

والغريب أن هذه البضاعة كانت تستوقف أنظار بعض المارة فيقفون أمامها يحدقون بها الساعات الطويلة كأنهم امام لغز ، ثم يمد الرجل يده إلى شىء ويسأله بنغمة تهون من شأنه :

- بكم هذا ؟

تدب الحياة فجأة فى هذا الشىء الذى كان ميتاً منذ لحظة وسط الحطام

لا يزيد ثمن شىء منها عن ملاليم قليلة ، وكان الرجل كما يبيع يشترى . يأتيه شيوخ فقراء يبيعون له شيئاً من حطامهم ، وعمال

يعرضون عليه أدوات سرقوها من رب العمل فيشتريها منهم بأبخس الأثمان ، إن هذه الأسرة تحوم دائماً حول السجن وتوشك بل تقع فيه أحياناً ، ويمضى الرجل وقته بين البيع والشراء فى حك هـذا الحطام وتلميعه بالمبرد واللعاب والورق المصنفر ، هو تسلية فى الصيف ودفء فى الشتاء ..

إبنه البكر اشتغل فى تجارة الروبابكيا والثانى فى الزجاجات الفارغة، والثالث فى الحديد الخردة ، وكان أكثرهم حظاً ، فقد درت عليه الحرب العالمية الأولى بأرباح وفيرة ولكنه ظل كما كان من قبل متنكراً للأسرة رافضاً أن يمد لها يده ..

والغريب أن إخوته الفقراء لم يصبوا عليه اللعنات ، مدركين أن هذا الطبع هو طبعهم جميعاً ، يجرى فى دمائهم ، وإن ظلت الأسرة تفتخر عن بعد بهذا الفرع الناجح وتنتسب إليه .. عبد المجيد شعبان من هذه الأسرة ، هو ابن تاجر الزجاجات الفارغة ، كانت عربة أبيه - وهى عربة يد - تحتوى أحياناً على مجلات وكتب قديمة يشتريها بالأقة مع الزجاجات ، وكان عبد المجيد قد دخل الكتاب ، وتعلم فك الخط ومبادىء الجمع والطرح ، ولكن أفراد هـذه الأسرة ينبغى أن يعملوا منذ نعومة أظفارهم اكتسابا للرزق وتوقعاً للتفرق ، فأخرجه أبوه من من الكتاب وهو لما يبلغ التاسعة من عمره ، وكلفه بتسويق هذه الكتب بدلا من بيعها جزافاً ، ولعل شيوخ هذا الجيل وكهوله من المترددين فى شبابهم على قهاوى باب الخلق والعتبة وشارع عماد الدين وسيدنا الحسين، يذكرون إلى اليوم هذا الصبي الفقير النحيل الذى كان يدور عليهم بكرم

من الكتب القديمة مرصوص فى عمود يبهظ ذراعه فيتندرون بذكائه وبراعته فى المساومة ..

من أفواه المشترين تعلم عبد المجيد أسماء الكتب ، ومؤلفيها ، وأدركت غريزته أنه يبيع أحيانا أشياء ثمينة بثمن بخس وإن بعض الناس يضحك عليه ، فبدأ يتأمل العناوين ويقرأها ويحفظها ، وبدأت تتضح له أسرار تجارة الكتب القديمة ..

ولما اشتد عوده فتح له أبوه دكاناً وراء سينما إيديال وقال له « انت الآن وشأنك فى الحياة ، لاتسألنى بعدها شيئاً ! » ، وكما كان يحدث لجده قعيد شارع الخليج المصرى أخذ يأتيه بعض الصبيع بكتب مدرسية يعلم أنها مسروقة فيشتريها منهم بثمن بخس ثم يمسح ويكشط أسماء أصحابها من على صفحاتها الأولى ، كما عرف شيئاً من أسرار تجارة الكتب والصور المخلة بالآداب وطقوس بيعها ..

وأصبح عبد المجيد خبيراً فى الكتب القديمة تجرى على لسانه كلمات طبع ببولاق .. طبع أوربا ، إذا عرض عليه كتاب قيم فرز صفحاته ليرى إذا كانت تامة أو ناقصة ، ويدقق فى الصفحة الأولى ليرى هل هى للكتاب أم ملصقة به تزويراً ، ويدقق أيضاً فى الصفحة الأخيرة ليرى هل تم الكتاب أم له جزء لاحق ، وإذا كان بالكتاب صور راجعها ليعرف الناقص منها ..

ولكن دكان سينما إيديال لم يزد عن أن يكون تجربة فلم يترعرع ، ذلك أن عبد المجيد كان يكره أشـــد الكره أن يدفع إيجار الدكان ويماطل صاحبه ..

فى أوائل الحرب العالمية الثانية اجتمعت ظروف عديدة أودت بهذا الدكان ، أولها أن التأخير فى الإيجار زاد عن ستة أشهر ، وثانيها أن عبد المجيد كان قد تزوج وبدأت زوجه تشاحنه ، وثالثها سماعه أن تجارة الصور العارية والكتب الجنسية تدر ربحاً وفيراً فى منطقة القناة.. أضف إلى ذلك عاملا آخر لا يقل عن هذه الظروف أثراً فى نفسه ... دغدغة التناثر التى حان حينها ..

هاجر عبد المجيد - أو هرب - من القاهرة إلى الإسماعيلية وهو مدين بالإيجار والنفقة وفى جيبه ثمن الكتب التى باعها جزافاً لزميل له ، وانقطعت أخباره عن الأسرة زمناً ، ثم علموا أنه أثرى من تجارته الجديدة واضاف إليها أيضاً الإتجار فى الحشيش على الضيق ، وسمعوا انه دخل السجن لبيعه الصور المخلة بالآداب ..

ثم رحل الإنجليز عن القناة بقضهم وقضيضهم،وقفاهم يقمر عيشاً.

وعاد عبد المجيد إلى القاهرة ، رجل مهدم مصاب بالربو ، وجهه ملىء بالتجاعيد ، عيناه غائرتان فى وجهه ، صدره مطبق ، ظهره محنى ، ملابسه - حتى الداخلية منها - من مخلفات الجيش الإنجليزى . .

أورثه ادمانه للحشيش علة لا ينفع فيها علاج : القلق النفسي ، لا يستحم ، ولا يغسل وجهه ، ملابسه قذرة ، شعره مشوش ، يهبط على جبهته الضيقة ، عيناه الغائرتان ترمشان فى محاصهما بلا إنقطاع ، أصبح أقرب إلى هيئة القرد منه إلى هيئة الإنسان ، ولم يجد القلق عنده متنفساً إلا فى الثرثرة ، إذا لم يتكلم يكاد يجن ..

غطس وقب . . فإذا هو صاحب دكان حقير مظلم على باب عمارة المؤيد فى شارع محمد على ، أكداس فوق أكداس من كتب مؤلفوها

لو أرخ للأدب المعاصر فى موسوعة من الف مجلد ضخم لما ظفروا فيها بنصف سطر ، إن غرور الكتاب لا يقاربه إلا حماقة الناشرين ..

ولكن عبد المجيد عرف كيف يستغل هجرة بعض الأجانب من مصر ، فابتاع بثمن زهيد كتباً قد يكون صاحبها قد أفنى عمره كله فى إنتقائها ببصيرة ، وجمعها بمحبة ، فأصبح دكانه يجمع بين الغث والسمين ولكنك من أجل أن تظفر بكتاب قيم واحد .. تحتاج إلى صبر أيوب ، وحمام ساخن ، إلا إذا دخلت الدكان ، وأنت فى طقم الغطاسين . .

لا يزال عبد المجيد يخفى فى ناحية من الدكان مجموعة من الكتب الجنسية ، والصور العارية ، فمن ذاق حلاوة هذه التجارة لا يسلوها . .

لم يمض على إفتتاح الدكان زمن طويل حتى تحدد ـ إلى جانب الزباين الطيارى ـ عدد الزباين الروزبيت ، وأذواقهم ، وبعضهم من بقايا دكان سينما إيديال ، لهم مواظبة لا تخل فى الاختفاء والظهور كأنهم الكواكب السيارة ، تدور فى فلك مرسوم ، شذ من بينهم شاب نحيل كالدودة ، له نظارة سميكة يخيل إليك أنها ـ من فرط عبثها ـ مصابة بصداع ، يأتى فى الصباح أحياناً ، ولكنه لا يغيب عن الدكان بعد الظهر إلا لعذر شديد قوى ، يهبط الدرج ويبدأ دورته من يمين الباب حتى ينتهى إلى يساره ، لا يكتفى بقراءة العناوين ، بل يفتح الكتب ويتصفحها يوما بعد يوم لا يكل ولا يمل ، أنه قلما يشترى كتاباً ، ومع ذلك لم يضق به عبد المجيد ذرعاً ، بل بالعكس ، ما يكاد يراه حتى يتلقفه

بشرثرته ويطوقه عبها إلى أن يكاد يخنقه ، أنه نعمة تهبط إليه من السماء . .

ولكن عبد المجيد ما يبدأ حديثه بالشكوى من مرضه ، ومن مصلحة الضرائب ، ومن خوفه من الموت ، وبرمه بالناس للؤم طباعهم ، وبالدنيا لخستها وفسادها ، حتى تصله ردود عن الكتب ومؤلفيها ، يحدثه كأنما يكلم نفسه ، عن كتاب القصة فى مصر ، بل قد يلخص له بعض مؤلفاتهم ، أو إذا وقع على كتاب لواحد منهم قرأ له بعض فصوله . . . لصاحبنا النحيل كالدودة ، مخ متورم بفلسفة عميقة ، تنفذ إليه من خلاله صور الأشياء كأنها تنعكس على مرايا محدودبه أو مقعرة صادقة مضحكة في وقت واحد ، يجمع كلامه بين الهزر والجد ، والغث والسمين ، والحق والوهم ، والبديهيات والشطحات ، أن شحاته قلقيلة « وهذا هو أسمه » ضحية جيل مضطرب ، تحس فى افراده إنهم محرومون من الراحة والإتزان ، كهذا الطير الذى يتوثب من فوق الغصن للطيران ، لا هو مستقر ، ولا هو طائر ، بل يخال لك أنه سيقع كالحجر يهوى إلى الأرض بين لحظة وأخرى ، جيل يتنازعه العجز والأمل ، إن لم يسقط هو الآخر من أغصانه ، فلأنما تمسكه دوامة الحياة فى دورانها العنيف . .

من سوء حظ شحاته إنه رغم طموحه لم يظفر من الحياة إلا بوظيفة كتابية فى مصلحة المجارى ، أنطوى على نفسه ويئس من الحياة كلها ، ولم يجد مهرباً إلا فى الانكباب على القراءة وغشيان المحاضرات ، يصفه زملاؤه بأنه لزقة ، وما دروا أنه إذا أنس إلى إنسان أو مكان

تشبث به ليشفيه من رهبة المجهول والغريب . . وأصيب الثرثار عبد المجيد بثرثار أعظم ، ولكنه من كثرة الزن على أذانه أصبح هو الآخر عليما بالكتب ومؤلفيها . .

* * *

خرج الأستاذ نبيه كامل من داره على عجل ، شفتان مطبقتان ، ويداه تعرقان ، استحوذت على ذهنه فكرة أضاءت كانفجار قنبلة ذرية . . لقد أعطته عنايات ـ من حيث لا تدرى ـ طرف خيط لا بد له أن يسير معه إلى نهايته ، إنه واثق أنه سيقوده إلى نصر عظيم ، إلى فكرة مدهشة . .

إن عبد الوهاب عيسى أعجز من أن يقدر الكنز الذى وقع فيه ، إن أنفه لاتشم أبعد من عينيه ، أما هو، فشىء آخر ، هذا الكتبي الساذج المجهول المختبىء فى عقر دكان مظلم دليل على أن الثقافة لم تعد وقفا على الأقلية المتعلمة ، بل خالطت جموع الشعب فى الأحياء البلدية ، ونفذت إليها ، ومن يدرى نتائج وصول هذه الثقافة إلى أذهان لا تزال بكراً ، لقد سئم الناس النقد الذى يكتبه أساتذة الجامعة ، سيستخرج من رأس الكتبي آراء طريفة ستنير الطريق وتحدث ضجة كبرى . . أن كتاب مصر يعيشون فى عزلة عن الشعب ـ وهذا خطر كبير عليهم ، ينبغى أن ينزلوا إلى هـذا الدكان بأنفسهم ، لقد مل أساتذة الجامعة ، وقلة من المثقفين إجتماع بعضهم ببعض فى حلقة ضيقة يخنق هداؤها الأنفاس . .

إن لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب والمجمع اللغوى ، ولجان

وزارة التربية والجامعة العربية والإذاعة ، كل هذه اللجان مؤلفة من عدد ثابت من المثقفين هم هم فى كل لجنة ، اللجنة واحدة ، واللافتة وحدها هى التى تتغير ، ألا يكون عملا رائعاً لو فتح الباب يوما على إحدى اللجان ودخل عليها كتبي وجلس بين الأعضاء كواحد منهم ؟ سيكون اجتماع الأدباء بالشعب بمثابة الاصطدام الذى يفتت القشور الزائفة ويبقى المعدن الأصيل، ستتحدد قيم عديدة فى صور جديدة لم يكن يفطن لها من قبل ..

وزادت مطامع نبيه وآماله ، وعلت حتى كادت تحوم فى كبد السماء . يقول لنفسه :

ـ إن الوعى القومى فى حاجة إلى رمز يدل على العصر والجيل ، ويجمع من حوله طبقات الشعب كلها يثبت وحدتها ويحث تقدمها للأمام ، ويكون فاصلا بين الماضى والحاضر ، وبشيراً بالمستقبل ، سيكون دكان الكتبي أكاديمية شعبية ، وترجمة عملية للجامعة ، وسيصنع نبيه جمال هذا الرمز بيده ..

عثر نبيه جمال على الدكان بسهولة ، دله الناس على عمارة المؤيد ، فوجد على بابها دكانا قرأ لافتته « مكتبة مصر الحرة ـ لصاحبها عبد المجيد شعبان » . . نزل السلم ، ودارت عيناه فى الدكان ، هبط قلبه قليلا ، لأن الصور المشعشعة التى رسمها لنفسه اختلفت كثيراً عن الواقع حين رآه أمس ، أنه فى عزلة فى العالم ، والكتب المكدسة جثث أموات ، ولكنه قال لنفسه : « لنصبر حتى نرى » لم يهجم على صاحبها من فوره بل أخذ يتأمل الكتب ويقلب بعضها . ويستدرج الرجل فى الحديث شيئاً فشيئاً فكان الرجل هو الذى هجم عليه بثرثرة لا تنقطع

عن شكواه من المرض ومن مصلحة الضرائب ، وعن خوفه من الموت وعن فساد الدنيا ولؤم طباع الناس ، ليس من أجل هذا جاء نبيه جمال . . قطع رغى الثرثار بسؤال من تحت الضرس :

ـ عندك كتب مصطفى محمود ؟ . .

ـ عاوز « أكل عيش » ولا « الله والإنسان » دا قصص ودا فلسفة شوية . . انت عاوز ايه . . . أنا عندى القصص أحسن لأنه يا أستاذ كتبها من قلبه ، وصف الشعب ، أهى دى القصص اللى إحنا عاوزينها ، المهم كل واحد يكتب حسب طبيعته ، أنا أحب جاذبية صدقى لأنها تكتب زى واحدة ست مش زى واحد راجل . . . إلا يا أستاذ طه حسين ما بيكتبش ليه قصص صغيرة ، شوف كتاب الأيام حلو قد ايه ؛ الواحد حس انه كان عايش معاه ، إحنا عاوزين أدب شعبي يا أستاذ . . هو مافيش إلا أفنديه وموظفين ؟ . تعرف أحسن مؤلف عندى مين ؟ بيرم التونسى . . انت ما قرتش كتابه « سيد ومراته فى باريس » فيه حكايات حلوه خالص . .

ـ ويش عرفك بالكتب دى كلها ؟

بهت عبد المجيد لهذا السؤال المفاجىء كأنه امتحان ، وداخلت نفسه الريبة من أن يكون القادم مخبرا من مكتب الآداب أو مندوباً من مصلحة الضرائب . . فأجابه مراوغاً :

ـ هو العلم بطال ، الحال واقف زى ما أنت شايف ، أهى فرصة ادهالى ربنا . . أنا أحب أتنور يا أستاذ . مش طول عمرى عايش على الكتب ؟ . . بفهم على قد عقلى ، وأحب أدردش مع ناس طيبين زى حضرتك . .

ـ أنا كان سمعت عنك وحبيت أشوفك بنفسى ، وعلشان كده فى الحقيقة جيت النهارده ، ويمكن يكون معايا خير كثير لك . .

واطمأن قلبه ، وبلع ريقه ، وأقبل عليه باسما يربت على كتفه :

ـ باين عليك راجل طيب . . من الأكابر . . أهلا وسهلا . .

ـ بس بشرط تسمع كلامى وتمشى معايا . . .

ارتد عبد المجيد إلى الحذر من جديد . . هل هى تلقيحة ؟

ـ أفندم ؟

ـ شوف . . أنا ح أعرفك بناس كتير . ح أجيبهوملك لغاية عندك ، يقعدوا وياك وتتكلموا سوا . .

ـ هنا فى الدكان ؟

ظهرت أول مشكلة .

ـ ما فيش حته تانيه ؟

ـ مفيش غير حوش العمارة .

ـ تعال ورهولى . .

ودخلا باب العمارة فوجدا حوشاً سماوياً ، ولكنه مظلم ينقبض له القلب ، جدرانه متآكلة ، والتراب علو القدم . .

ـ ينفع . . ينفع بشوية ترتيب وحاجة بسيطة نصرفها (أستعمل نبيه جمال صيغة الجمع عمداً) نقدر نوضبه ، أحنا مش عاوزين أبهة ، ولا نخفخة ، عاوزين نبقى زى ما أحنا . . ؟

ـ أنا راجل على قد حالى ، والدنيا واقفة . .

ـ مالكشى دعوة ، النور والكراسى والفراشة على أنا ، إنت مش واخد بالك ، كل واحد ح يجيلك يطلع بكتاب أو كتابين بكرة . .

تشوف ، بس لازم تمشى معاى للآخر .

ـ وأمتى الكلام ده . . . ؟

ـ ح أقولك بعدين ....

وسار نبيه جمال من باب الخلق للعتبة على قدميه يتأمل الدكاكين على الجنبين ، وكلما تقدم خطوة امتلأت لوحة جديدة فى ذهنه .

هذا الشارع يجب أن ترد له كرامته ، إنه الحى اللاتينى للقاهرة ، ثلاثة دكاكين موسيقى حسب الله ، على الجانبين عدة مكاتب ، ومطابع وقهاو ، هو حى العوالم ، منتدى الملحنين والمطربين الشعبيين ، بنت البلد لا تزال الطابع الغالب فيه ، نداءات الباعة فى ميدان باب الخلق هى مصدر الفنون الشعبية كلها ، ستلتقى هذه الفنون بالأدب الحديث فى الندوة التى سيعقدها فى حوش عمارة المؤيد ، إنها ستستمر أسبوعاً على الأقل ، سيأتى أساتذة كثيرون لإلقاء محاضراتهم ، سيجتمع الأدباء والملحنون ، وكتاب الأغانى ، وأبطال الفنون الشعبية . . من الموال ، والزجل ، والربابة فى صعيد واحد ، ولكن الصورة يجب أن تكمل ، إن هذه الندوة ينبغى أن تجذب إليها . . فن الرسم ، وفن النحت أيضاً ، سيطلب إلى الرسامين أن يعلقوا لوحاتهم على جدران حوش المؤيد ، وعلى المثالين أن يأتوا بأعمالهم الصغيرة أيضاً ، إن الفنون الشعبية ستؤثر تأثيراً مباشراً سريعاً على إنتاج الأدباء ، والملحنين ، والرسامين ، والنحاتين ، ومن المحقق إنهم سيؤثرون هم بدورهم على الفنون الشعبية بتطويرها حتى تصبح فى مقام الفنون الرفيعة ، لا شك أن عروسة المولد ستنطق بلغة جديدة ، إذا وضع تصميمها مثال . . كالسجينى ، أو رزق ، إنه مهرجان كبير سيهز الرأى العام هزاً . . !!

ودلف يميناً إلى سوق الخضار . . يمر مسرعا أمام دكاكين بيع السمك ، وبتريث أمام القصابين ، وبائعي الخضر ، يقول لنفسه :

- شيء عجيب .. ! .. أليس هذا هو « الهال » - سوق اللحم والخضار .. في باريس ، لماذا لا تفتح في هذا السوق عندنا - كما عندهم - مطاعم نظيفة يأكل فيها الناس اللحم طازجاً ، والخضر ما تزال بشوكها وندى الحقل .. ؟ تستقبل الزوار طول الليل ؛ لأن لذة الذهاب إلى السينما والمسارح لا تتم إلا بسهرة في مثل هذا الجو ، أن سوق باريس هي منتدى أرقى الطبقات .. وأجمل النساء ، يشربون حساء البصل على ضوء الفجر .. فهو إمتداد للحى اللاتيني في باريس ، مع بعد المسافة بين الأثنين ، أما نحن فالحال عندنا أحسن من باريس ، سوق الخضار ، وشارع محمد علي جيران متلاصقون ، ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ .. إن الحركة التي ستبعث في شارع محمد علي ستقلب سوق الخضار أيضاً رأساً على عقب ، وهـذا هو شأن المشروعات النيرة ، فكرة بسيطة - ولكنها أصيلة - في مبدأ الأمر ، ثم لا تلبث أن تجذب إليها سلسلة لا تنتهي من أفـكار أخرى كلها ناجحة ..

بقي أن يحدد الأستاذ نبيه جمال موعداً مناسباً لهذا المهرجان ، لماذا لا يكون يوم وفاء النيل .. ؟ .. أنظر .. ! .. إن الرموز كلها تتجمع ، ومن حسن حظه أن هذا اليوم سيحل بعد شهر واحد ..

قبل الموعد بأسابيع ثلاثة بدأت الحملة ، طالع القراء ذات يوم في عمود الأستاذ نبيه جمال صورة كبيرة لرجل يضحك ملء فمه ، ويشير

بيده ، على صدره سويتر إنجليزى ، وتحت الصورة « بائع كتب قديمة ينقد أدباء مصر . . ؟ » ، وتحت العنوان مقال عن تاريخ حياة عبد المجيد شعبان ، ومشاركته فى حركة المقاومة فى القناة ، وآرائه الطريفة عن أدباء مصر .. !

وبعد يومين .. أعلن موعد إنعقاد الندوة ، فأكد إشتراك نادى القصة .. وبيت الفن ، وجماعة الفن الحديث فى هذه الندوة « وكان لم يتصل بأحد أعضاء هذه الجماعات بعد » ، وطلب من الرسامين والنحاتين أن يختاروا « الفنون الشعبية » موضوعا لأعمالهم وإرسالها إليه ..

وفى عدد آخر .. أعلن أن الندوة ستضم جماعة كبيرة من أبطال الفنون الشعبية .. من الزجل ، والمواويل الحر ، وغير الحر ، وعازفى المزمار ، وضاربى الدفوف ، ولاعبى الربابة .

وفى يوم آخر .. نشر كلاماً طويلا عن شارع محمد على ، وأنه هو الحى اللاتينى للقاهرة ، ورسم صورة دكاكين موسيقى حسب الله ، ولافتة ـ بأسم عالمة ـ وصورة لحارة يصعد إليها بدرجات عالية تمتد إلى مرمى البصر، وتحتها : « حتى حارات شارع محمد على لها طابعها الخاص المثير ، إنها تشبه دروب المدن المقامة على التلال فى أوربا » ..

ثم ابتدأ بنشر الإقتراحات التى أخذت تنهال عليه، كتب إليه طالب يقول : « اقترح أن تصدر مصلحة البريد بهذه المناسبة طابعاً تذكارياً : . يرمز للفنون الشعبية بصورة ربابة .. ؟ » .

وكتب قارىء آخر « لماذا لا تطلبون إلى دار الكتب أن تقيم بهذه

المناسبة معرضاً للكتب التى تعالج الفنون الشعبية .. أمام دارها طول مدة إنعقاد الندوة .. »

وكتب إليه مهندس يقول : « دهشت لإغفالكم فن العمارة فى ندوتكم الجريئة مع أنه أساس الفنون كلها ، أقترح أن يكون من بين المسائل التى تناقش فى الندوة موضوع ضرورة إبتكار طراز معمارى يليق بجونا ، ومن حسن الحظ أن شارع محمد على يضرب مثلا رائعاً لصواب فكرة البواكى ، ومع ذلك هدمتها مصلحة التنظيم ، هذا العبث بتراثنا ، يجب أن يقف عند حد .. وأطالب بضرورة المحافظة على البواكى الباقية .. »

وكتب إليه رجل من أسيوط يقول : « أقترح أن تذاع الأحاديث التى ستدور فى الندوة لننتفع بها نحن سكان الصعيد » ..

وأزدحم مكتب نبيه جمال بعدد ضخم من لوحات من عمل أساتذة وطلاب ، وعدد كبير من التماثيل ، ووصلته مجموعة مدرسة المنصورة الصناعية تضم أعمال الطلبة فى التعبير عن الفنون الشعبية » ، وكانت رقصة التحطيب هى اللون الغالب فيها جميعاً ..

أما أبطال الفنون الشعبية ، فلم يتعب الأستاذ نبيه جمال .. لا قليلا ، ولا كثيراً فى جمعهم ، فقد تقدم إليه متطوعون كثيرون من عازفى الرباب ، ونافخى المزمار ، ومؤلفى الأزجال والمواويل ، كل منهم يطلب بأن يذكر أسمه فى عموده ؛ لأنه مظلوم مع الإذاعة . .

وفوجىء أهل الحى بعربات تحمل الكراسى والكلوبات تقف أمام عمارة المؤيد ، وأخذوا يسألون . . هل هو فرح ؟ .. أم مطاهر ؟ ..

إلا دلائل تدل على أنه ميتم .. فلا تحمل العربات دكة المقرىء ..

وعبد المجيد رمضان .. مذهول لا يفهم شيئاً مما يحدث ، هو تارة مستبشر ، أن طاقة من السماء قد فتحت له ، لا تنقطع ثرثرته ، يمر على الجيران يريهم صورته فى الصحيفة .. ويتحدث إليهم عن النبأ العظيم ، يضحك فى سره أحياناً ، ثم ينتابه شعور خليط من الخجل والرهبة .. ماذا سيحدث له ؟ .. من سوء حظه أن شحاته قلقيلة قد انقطعت رجله فى الأيام الأخيرة ، فبحث عنه كالمجنون .. حتى عثر عليه وجذبه إلى الدكان ، وهو يلح عليه :

ـ أنا عاوزك يا عم تقف جنبي ما تسيبنيش دقيقة واحدة ، ربنا يستر عيال ما تخلص الهيصة .. ؟

* * *

وحلت الليلة الموعودة ، وعلقت اللوحات على الجدران ، ونصبت التماثيل على الرفوف ، وصفت الكراسى ، وأضيئت الكلوبات ، أبطال الفنون الشعبية متزاحمون جنباً إلى جنب ، جمع غريب من الناس ليس فيهم إلا نزر يسير ممن سبق الوعد والتأكيد باشتراكهم فى الندوة ، فيهم المورط ، والخائف ، والعابث ، والطفيلى .. وفيهم سذج ساقهم التيار ، من خلفهم عدد غير قليل من سكان الحى دفعهم حب الاستطلاع ورؤيه الأكابر القادمين من وش الدنيا ، وجاء عدد كبير من مصورى الصحف .. بأضوائهم التى تزغلل العيون ، وجماعات كثيرة من براجم جرب حظك ، وصواريخ ، ومقالب وطقاطيق ، وعلى الناصية ..

وجلس عبد المجيد شعبان .. يبلع ريقه ، وعن يمينه شحاته قلقيلة ، جلست عنايات بجانبه ، أما نبيه جمال ، فهو لا يستقر فى مكان ، ويجلس وسط كل الحلقات ..

ووقف عبد المجيد أمام الميكرفون .. وبدأ كلامه متلعثما .. يتلفت يمنة ويسرة :

ـ أهلا وسهلا ، إنتم نورتم الحتة ، أحنا نفسنا من زمان نشوفكم ، أحنا مالناش خير إلا أنتم .. والشعب يا سادة محتاج للثقافة .. عاوز كلام يفهمه ويكون فيه فايدة ، ويعالج مشاكلنا ، سور الأزبكية مش بطال ، الأرزاق على الخلاق ، لكن لازم يوزعوا المحلات فيه بالعدل والقسطاس ، ومصلحة الضرائب لازم تخفف عن بياعين الكتب ..

ثم خلط كلاماً عجيباً تكررت فيه أسماء الأدباء المشهورين وكتبهم ، والغريب أن كلامه قوبل بتصفيق حاد ..

ثم وقف بعده أستاذ ناشىء يتحدث عن الفنون الشعبية ، ونهضتها الحديثة ، وانتهت الحفلة بعزف على المزمار ، وشعر على الربابة ..

فى الليلة الثانية .. قل عدد الغرباء ، وزاد عدد أهل الحى ، وأصبح المتكلمون يتحدثون جلوساً أمام الميكروفون ، وكان عماد الحفلة رجلا قصير القامة ، أشيب الشعر ، ذابل العينين ، رقيق الصوت ، ساذجاً ، فى يده عصا ، طمأن الحاضرين أن كلامه لن يخرج عن حد الدردشة ، ومع ذلك .. غاب معظم كلامه عن فهم الحاضرين .. لأنه خريج بلاد بره .. !

وتلاه أبطال الزجل الشعبي . .

ثم أنقلبت الندوة إلى قهوة ، إلى أن أتتها رحمة من السماء . . فأمطرت ذات ليلة مطراً شديداً . . فساحت الألوان ، وأنفض الموكب ..

* * *

دكان مكتبة مصر الحرة مغلق ، صاحبه يدور كل صباح على وزارة الأوقاف ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة الثقافة ، ووزارة التربية والتعليم ، ودار الإذاعة .. يطالب بمكافأة ، ويؤكد فى عرائضه أن الندوة خربت بيته .. وإنه مدين للقهوجى وحده بمبلغ عشرة جنيهات ..

ودهش أصدقاء عنايات .. حين رأوها تتزوج فتى نحيلا كالدودة تجره معها فى الحفلات ، وقالوا الزواج ستر ، وما علموا أنها أختارته هذا الشاب لضعفه ، فهو يشفى غريزة الأمومة فى قلبها ، وشهوة التحكم والاضطهاد التى لا تبرأ منها امرأة ..

أما عبد المجيد فلقيلة .. فإن كان وزنه قد زاد قليلا ، إلا أنه أدرك ـ وقبل صاغراً شأن المحروم ـ أن المجد قد لا يشترى فى بعض الأحيان إلا بشىء من الصهينة ..

* * *

من عادة الأستاذ نبيه جمال أن يتناول طعام الغداء كل يوم جمعة مع أمه فى بيت الأسرة فى السكاكينى ، هى سيدة أمية بدينة ، رغم ورم

ساقيها لا يفوتها فرض ، تدخل بيتها فيخيل إليك أن أصحابه قادمون لتوهم من حمام تركى ، رائحة النظافة والغسيل والدفء ، والهواء المكتوم وبخور المستكه ، وشكشكة التقلية ..

ذهب إليها بعد الندوة .. وهو حين يجلس بين يديها تنحل قسمات وجهه ، ويعود إلى هدوء الطفل ، وتزول تمتمته ، وتشمله إستكانة حزينة مخدرة .. كأنه ود لو لم ينفصل عن حجرها أبداً ، ولكن قلب الأم لا تخفى عليه خافية ، أطالت إليه النظر وهى صامتة ، ثم قالت له بصوت هو الحنان والحب والإعزاز والاشفاق معاً :

- يا بنى مش ح تسيب الهجص ده اللى أنت ماشى فيه وتشوف لك شغلة كويسة فى الحكومة .. ؟!

الديك الرومي

كان الود ودى أن أشم نفسى جمعة جمعتين ، أو على الأقل يومين ثلاثة بعد أن ظهرت نتيجة امتحان ابنى عادل ، وفرحنا بنجاحه ، وأن شاب هذا الفرح شيء غير قليل من التوجس لا أدرى كيف يمكن أن توحى به كلمة ظريفة لطيفة مثل كلمة « مقبول » ، كان القبول فيما مضى هو غاية المراد من رب العباد ، فكنا إذا علت آمالنا فى شيء اكتفينا بقولنا : على الله القبول ، إنما هى الآن أصبحت شبيهة بالأحكام التى تصدر مع إيقاف التنفيذ ، لا أنت مذنب ولا أنت برىء . .

لكن النجاح بدرجة مقبول على كل حال خير من الرسوب المؤدى لا إلى إعادة السنة بل إلى الفصل من المدرسة ، وقد كان ابنى عادل ـ اسم الله عليه ـ قد سقط مرة من قبل ، ولو كررها لقعد لى فى البيت زى الهم على القلب . .

مقبول مقبول ، زى بعضه ، أهى برضه نعمة كبيرة ، سنجعل أتكالنا على الله وندعوه أن يهيء له بمنه وكرمه مفتاحاً من ورائه رزق حلال . .

حقاً . . كان البد بدى أن أشم نفسى على الأقل يومين أو ثلاثة . . فى الأشهر القليلة الماضية كنت كالمكروش تطاردنى يد قاسية بكرباج جلابى عمال على بطال ، لم يكن عادل هو الذى يسهر وحده بالليل حين

اقترب آخر السنة ، فقد امتنع النوم عليّ أنا أيضاً ، وذقت تفانين الأرق حين يفترس بنى آدم . . وفى يوم الامتحان نفسه كان العرق يتصبب من جبهتى وأنا جالس أقلب الصحف على مكتبي فى الوزارة ، أمسحه بالمنديل حتى أصبح هذا المنديل نغة ، وتضاءل إلى كره صغيرة مبشبشة ، وبدأ زملائى يشيحون عنى خشية أن تصيبهم منى عدوى انفلونزا . .

دارت الحجرة حولى ، وكدت أرى رأى العين أنى جالس تحته خيمة ، وأمامى ورقة بيضاء تلح عليّ فى سخرية المتحدى أن أخط فيها ولو حرفاً واحداً فلا أستطيع ، وغاية ما أقوى عليه أن أظل أكرر : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . . بسم الله الرحمن الرحيم . .

إذا عادت لذاكرتى هذه الأيام ، أحسست بشىء من الخجل ، إذ تبين الآن أن عادل كان كلما كبس على نفسى يطالبنى بشراء الكتب والدروس الخصوصية ، كلما كبست أنا أيضاً على نفسه أكثر مما يفعل هو بالالحاح المتصل عليه بالمذاكرة ، وتخويفه إلى درجة الرعب من السقوط فى الامتحان ، وكل ساعة وأخرى أدخل عليه وأقف على رأسه كأنى أراقب حلة على وابور الجاز ياترى إستوت ولا شاطت ولا انطفأ الوابور ، وكيف أصبر وأنا لا أستطيع أن أشق رأسه واستطلع العلم الذى تحويه لأختبر درجة نضوجه . فأنا لم أحصل إلا على البكالوريا كيانة موديل قديم ، وما لها ؟ الواد اتبرجل ، كان إذا دخلت عليه وهو يقرأ بصوت عال ، تململ وانقطع عن التلاوة ، وأثبت لى بحركة عينيه وحدها إنه يلاحق السطور كالمكوك واحدا بعد آخر ، وإذا كان يقرأ فى سره ، ارتفع صوته فجأة بالتلاوة كأنى فتحت راديو وسط الكلام ، كنت أعلم أنه من الحكمة أن أثق به وأتركه لحاله ، ولكنى لم

أستطع إلا أن أكبس على نفسه كما كان يكبس هو على نفسى ، فهذا هو قانون العيش : العين بالعين والسن بالسن حتى بين الآباء والأبناء ، والعين الثانية غير عادلة دائماً فهى وإن كالت الصاع بمثله تزيد عليه حفنة من بهارات التشفى والانتقام . .

كنت أفرغت له كل جهدى ومالى حتى نفد الجهد والمال فتضعضعت واستدنت والعياذ بالله ، ومع ذلك ذكرتنى زوجتى ـ وما أقوى ذاكرة النساء فى المنغصات ـ ذكرتنى بالنذر الذى جاءتنا به ليلة نصف شعبان ، لم يعد باقياً فى بالى ، نسيت أو فى الحق تناسيت ، فما أسهل نسيان النذور ، النية صادقة عند الالتزام به ، متهربة عند حلول الوفاء ككل دين ، أظرف إنسان لإنسان هو الدائن حين يسعفك ، وأثقل إنسان على إنسان هو هذا الدائن نفسه حين يطالبك بالسداد . .

قالت زوجتى :

ـ مش فاكر ندرنا ؟ . .

ـ إيه يا ستى ؟

ـ ندرنا نعمل خاتمة لو نجح الولد فى الامتحان

ـ طيب ياستى اشترى لنا جوز كوارع عجالى . واعملى لنا فته وربنا يحب المحسنين . .

ـ يادى المصيبة ياراجل ! خاتمة على جوز كوارع ؟ دى كانت تنفع فى الإعدادية إنما دى الالانس يانور عينى ، يادى الفضيحة . .

ـ يعنى عاوزه خروف ؟

شىء من الحياء والمنطق والتسليم بالأمر الواقع عقد لسان زوجتى . . فتمتمت :

- لأ مش قصدى ، بس حاجة مشرفة .

- زى ايه ؟ قولى انتى . . انت عارفه البط بيجيب لى اسهال .

- يعنى ديك رومى على صينية رقاق وشوية بطاطس ، وشوية رز بلبن . .

كدت أضرب كفاً بكف :

- يا ولية حاتوكلى الفقراء ديك رومى ؟ حايكفى مين ولا مين . .

- ما أنا بقول بلاش لمة كبيرة ، نعزم أخويا واختى وكفايه كده ، خاتمة عائلية منا فينا ، وما يسلمش برضه حته تفضل للبت الخدامة والبوابه والأعمال بالنيات . .

سهى على زوجتى إن لى أنا أيضاً أخا وأختاً . . بلعتها ولم أفتح فمى ، فقد تعلمت بالتجربة أن لا فائدة من المناقشة والالحاح ، أحكام زوجتى تصدر غير قابلة للطعن بالمعارضة أو الاستئناف . .

ووضعت زوجتى بأصابعها المضمومة - ومصروف البيت فى يدها - وضعت ثمن الديك الرومى كأنها تبيض فى كفى ، ولولا الحياء لأمسكتنى من أذنى وهى تقول لى كأنها تخاطب طفلا : فتح عنيك كويس ، واوعى الراجل يضحك عليك ، وابقى فاصله مرة واتنين وثلاثة ، ولو حلف لك بالطلاق خلى الديك يمشى قدامك على الأرض واستنى عليه لما ينفش ويزربن ويبرطم . .

وجدت كلمة يزربن ويبرطم من فم زوجتى حلوة زى الشربات ، وضحكت رغماً عنى وقلت لها :

- إيه النصاحه دى يا مراتى ، حقهم يعملوكى عضو فى مجمع اللغة العامية ! . .

حقاً إن الديك الرومى ليس عقدة فى وصف صوته وحده بل فى كل تصرفاته وحظه ، هو عند الانجليز معروف بالتركى ، وعند الأتراك بالهندى ، وعند المصريين بالرومى ، هذا الحائر بين الأوطان من طراز فريد لا نظير له ، إنه المخلوق الوحيد الذى يبرطم ويزربن لوحده من الطاق للطاق ، لا يؤذن كالديوك ، بل يرى فجأة فى انفعال الشيوخ ، قليلى الصبر ، يروى مأساة طويلة جداً فى كلمات قليلة جداً جداً ، وكأنه ينقش بمنقاره هذه الكلمات فى الحجر ثم ينفش ريشه ويهبط جناحه حتى يمس الأرض ، وتتكور بطنه وصدره ، ويصبح مثالا للنفخة الكدابة فى الخيلاء والعظمة ، كأنما أريقت على رأسه كنكة تغلى بشمع أحمر يصبها محضر فى يده حكم بالأغلاق أو المصادرة ، فلما جاوز الشمع منقاره انعقد ولم يسقط إلى الأرض ، هذه الدلدولة تخايل عينيه وتجنن اللى ما يتجننش، فهو معذور فى زربنته وبرطمته .

اقسم أنى عملت بكل نصائح زوجتى ، وفاصلت حتى زهقت وكدت أطلع من هدومى ، وصبرت حتى رأيت الديك الذى وقعت عليه ـ أو وقع علىّ ـ يزربن ويبرطم ، وتمنيت لو استطعت أن أزربن وأبرطم مثل الديك ، ولو مرة واحدة فى وجه زوجتى . .

ولكنى لم أكد أضعه بكل فخر وانتصار أمامها ، حتى كادت تلطم على الخدين ، وجدت ديكا غير الديك الذى خلت أنى اشتريته ، كش وانكمش ، ومال واحتجب ، وادعى المرض ، كأنما هبط عليه صقيع سيبريا كله ، ومالت رأسه على صدره ، وانطفأت عيناه ، وخيل إلى أنه مصاب بالصرع والارتكريا والاكزيما الحادة ، فزعناه وهششناه باليد والعصا ، فلم يتحرك إلا بوقار مريض أو مرض وقور ، لحملته زوجتى

وجرت به إلى دورة المياه ، ورفعته وقلبته وأمسكته من رجليه. اقسم أنى حسبتها شدت السيفون . فقد اندلق من حلقه سيل بحاجل من الحصا والذرة والطوب والفول ، له على السلطانية وقع البرد على زجاج النوافذ لا يقل مانزل من جوفه عن رطلين كاملين ، ثم وضعته على الأرض ففاق قليلا ، وأضاءت عيناه قليلا ، حسبته سيتجشأ ويطلب واحد كازوزة . . فقلت له فى سرى :

ـ اطرش اطرش يا حبيبى ، أنا كان قبلك طافح الكوتة بس مش قادر أطرشها . .

لم أحضر ذبحه ، فأنا أحتمل كل شىء إلا الدم والسكين تغوص فى رقبة حيوان أبكم ، إنما حضرت نتف ريشه ، وأنا متلذذ كالأجرب إذا رأى رجلا يهرش جنبه وتحت أبطيه ، فقد خبرت مثله من قبل معنى نتف الريش . .

وعلى المائدة تربع فوق شلتة من الرقاق ، طير هزيل ، لا يزيد حجمه عن الدجاجة إلا قليلا ، هذا حالى يا بطل ، والفرق بينى فى أول الشهر وآخره . .

وظلت زوجتى تعزم على أخيها وتحلف على أختها ، وتزغط ابنها ، وتربت على ظهره حتى إذا انحدر أغلب لحم الصدر فى جوفه ، وغلفه بالرقاق والبطاطس ، وليسه بالأرز بلبن حتى حسبته قد استخذى لخدر لذيذ ، وإن كان يبادل أمه النظر من تحت لتحت ، وأخيراً عرفت سر هذا الخدر وهذه المؤامرة حين قالت أمه وهى تضحك :

ـ فرحة عادل ما تتمش إلا إذا شفنا له واحدة بنت حلال نشبكها

لله من دلوقت عيال ربنا ما يسهله ويتوظف ، ومش ح نروح بعيد ، سنية بنت أبله عزيزه لسه بعته لى صورتها من اسكندرية ، حلوة وأمورة ، لم أفتح فمى - ثبتت نظرتى على حطام الديك .. نعم ... الأسكندرية ، أمام هيكل سفينة تولد على شاطىء الأنفوشى ، فهاهى الضلوع أمامى عارية ، الصدر المثلث إطار غليظ يضم لوحا رقيقاً من زجاج مصنفر ، يصلح تحفة فى فن الإضاءة الحديثة ، والعظام دبابيس شعر السيدات أيام زمان ، نتفوا ريشه ، و نسلوا لحمه ، وقضقضوا عظامه ، فقلت لزوجتى :

- أهى دى تبقى الخاتمة اللى تستحق ندبح فيها خروف ، بس يكون خروف لابس بدلة وجاكته ولابس نضارة نمرة سته غامقة . .

بهتت فقالت وهى مرتبكة :

- تقصد إيه ؟ ودا يبقى إيه ؟

فأجبتها وأنا أقوم واقفاً أفركش الجلسة بقهقهة عالية للدلالة على أن كلامى هزار فى هزار لا يغضب منه إلا الأحمق أو سيء النية - وإن كان من الهزار ما هو أمر من الجد :

- الخروف دا ياستى يبقى واحد شبهى أنا ! . . .

ألم أقل لك ؟

كنت أعتزم فى أوائل الصيف الماضى أن أعود لتلك الشقة الصغيرة المطلةعلى بحر الإسكندرية : تحت البيت بائع الثلج ، ومطعم ومقهى ، وإذا ضاق بى النهار بعد جلسة الشاطىء والاستحمام ، تسليت باستعراض مواكب المارة ، وابتسمت لرؤية أصدقائى من نبهاء شحاذى القاهرة يصطافون معنا ، وإذا أطبق علىّ الليل، ففى السينما والمسارح فرج كبير ..

ولكن كنت قد أصبت بمرض أرهقنى جسما ومالا ، وتمثلت لى أعقابه فى ملل شديد من الدنيا ومن الناس أجمعين ، فقلت لنفسى : لاخلاص لك إلا أن تعدل عن الإسكندرية، وتسافر هذه المرة إلى ذلك المصيف الصغير فى برارى شمال الدلتا ، هناك ستجبرك الوحدة على الفراغ لنفسك وتوفير مالك . سيكون المصيف راحة وأكلا ونوما ، سأعود أضرب صدرى من فرط الصحة وأصرخ كطرزان ، قد انزاح عن جسدى وذهنى وروحى كل أوصابها ، فما بالك وقد أقسمت أغلظ الإيمان على الامتناع عن التدخين يوم أن أصل للمصيف ؟ ولا بأس من مضاعفة تدخينى فى الفترة الباقية على السفر ، فقبلات الوداع مفلوتة العيار ..

وعلم صديقى عبد الودود بعزمى هذا ، فجاءنى مهرولا لينصحنى :

لا بما ينبغى أن أفعل ، فهذه النصائح هى من نوع الوصاية والحجر ، تضج منه النفس ، فلا عجب أن خابت فى كل زمان ومكان ، بل لينصحنى بأن لا أقع - كما يقول - فيما وقع هو فيه من قبل ، فلا سبيل لك أن تشيح بوجهك عن صديق مخلص، يضع تحت تصرفك خبرته التى دفع هو ثمنها من رصيد آماله وأحلامه ودموعه وعرقه ، ونحن نعيش فى بلاد حارة ، وكأنما دفع الثمن إكراما لك ، فى توقعه ان يصيبك أنت فيما بعد ما قد أصابه هو فيتأتى له أن يحذرك قبل وقوع المحذور ، الذى يعلمه عن تجربة . .

والحق أن صديق عبد الودود يخلط تجاربه بتجارب غيره ، وأكثر تجارب غيره وصلته سماعا - بل لعلها كل بضاعته - ثم إن تحذيره لك من المغامرة، إنما هو حسرات فى قلبه هو من أنه لا يقدر عليها فيريد أن يرى عن قرب كيف تكون، وأين من يحقق له هذا الأمل، إلا صديق عزيز له مثلى ؟!

هز عبد الودود رأسه وأدار طرف سبابته على شاربه وقال :

نصيحتى لك يا صديقى العزيز إن أردت السلامة ، أن لاترقب بقية المصطافين معك لترى كيف يقضون أوقاتهم . .

فقلت له : وكيف كان ذلك ؟

- قال يبدأ (أى صديقى عبد الودود) لعلك لا تعلم أنى سافرت مرة لمصيف مشابه لمصيفك ، وكان فى عزمى أن أقضى به شهرا كاملا فعدت بعد أسبوع واحد .

- هل وحشتك سريعاً جلسة الرصيف أمام قهوتنا ؟

ـ لا ، عدت لأن كل نقودى طارت فى القمار ، خسرت آخر مليم فى جيبى ، وكدت أبيع بعض ثيابى ، وركبنى الدين ، ولا زلت غارقا فيه ، وما السبب ؟ لا أقول أن حظى كان نحساً مركباً ، ولكن هذا هو الواقع ، وكان من اليسير لو اعتدل ـ ولو مرة واحدة ـ أن أكسب ثروة طائلة ، بل السبب الأول والأخير ، هو عجزى عن مقاومة سحر القمار فى مثل هذه المصايف، سأشرح لك الأمر كله، وصدقنى فإنى به خبير، واستطرد يقول : ليس فى الدنيا كلها خداع يفوق خداع الوحدة ، نحن نطلبها أحيانا ، ونتمناها ونقول : حبذا لو أتيحت لنا ففرغنا إلى تحقيق أفكار عديدة تدور فى رؤوسنا تشغلنا عنها الناس والدنيا ، فإذا أخذتنا الوحدة فى أحضانها ، ضقنا بها ضيقاً شديداً ، لا يبدد هذه المشاريع وحسب ، بل يمحق الفكر كله ، وأنت تعلم أنى أحب الناس ، فسعيت أول يوم من وصولى للمصيف أن أتبادل الحديث مع أهل العشة المجاورة ـ وليتنى مافعلت ـ ولكن لامفر لك من ذلك ، لأن وجهك فى وجوههم طول النهار ، ورفع الكلفة يهون بين من يرتدون ملابس الدار ، فإذا تبادل التحيات ينقلب إلى مودة ، والمودة إلى صداقة ، والصداقة تنعقد حول مائدة القمار ، وإذا بهم أساتذة فى فن القمار لا يشق لهم غبار .

ثم صمت ولمعت عيناه وارتعشت شفتاه ، كأنما يتذوق بقية كأس من خمر معتقة ، ومال بوجهه نحوى يقول بصوت خافت متهدج :

ـ انت لا تعرف خطر القمار فى هذه المناطق المقطوعة عن العالم ، إن له فيها سحرا غريبا . إن المقامرين فى أكثر الأماكن ضجة وزحاما يحسون أنهم قد انفصلوا عن الدنيا كلها ، فما بالك إذا طابق الواقع

الخيال ؟ وماذا يهمك إن سهرت الليل كله ، إذا كان النهار لا ينتهى طوله فى هذه الأماكن المقطوعة ، ثم إن الليل الذى لا يصبر أهل المدن على صحبته ، ويحسبون لأنهم لا يرون منه إلا أشلاء ممزقة بين الجدران وخلال النوافذ، يحسبونه منطوياً على نفسه قليل الكلام، يجد له الساهرون فى المصايف ـ والساهرون هم المقامرون ـ أفاعيل عجيبة ، حين يحس أن ساعة الرحيل قد دنت.

النجوم تتهاوى كأنما انفرط من زينة السماء عقد من ماس وردى ، تكاد ترى رأى العين عجلة الأفلاك تدور أمامك ، هناك إشارات غامضة تجوب السماء : البدار ! البدار ! فى كل غمضة عين لون جديد ، هو طيف ابتسامات متتالية ، إنك تحس بتنفس الفجر وقدومه كملك تحف به كوكبة من حسان تحسبهن لؤلؤا منثورا ، يزفهن هدير البحر وزغاريد الطيور المبكرة ، كان يتملكنى عند رؤية الفجر شعور لا أتبينه : هل هو خدر لذيذ من تعب روحى بعد أن فارقها الملال ؟ أم أنها اهتدت إلى لحظة هى كالهدنة بين حربين ، أتطلع إلى وجوه زملائى ـ وأغلب مالى فى جيوبهم ـ فيرق لهم مع ذلك قلبى، وأظن من وهمى أن صداقتنا العابرة التى سنطويها مع الصيف ، ستبقى مدى الحياة ، أضحك لأقل نكاتهم ، وأرضى عن نفسى إذ أحس من نظرتهم أنهم يستخفون دمى . كل هذا سحر باطل وأوهام ، ولكنه لايزال يراودنى إلى الآن فى بعض أحلامى ، فإياك إياك أن تقع مثلى ، سأنتظرك عند عودتك لتقص علىّ ما شاهدته أنت من بعيد ، ولكن حذار حذار أن تقترب من النار ، ها أنذا قد أنذرتك وكفى ما حدث لى . .

قلت له: ولكن ياصديقى ـ كما تعلم ـ أنالاألعب القمار، قال ضاحكا: ومن أجل هذا حذرتك ، لأن « الغشيم » هو الذى « يطب » !!

* * *

هو مصيف تسير فى البحر عنده ميلا فلا يبلغ الماء رسغ قدمك ، ولكنك لاتصل إليهإلا بعد أنتخوض بحرا أعظم من رمل دقيق تغوص فيه إلى ركبتيك . لما بلغته كفتنى نظرة واحدة لأن أحيط بالمصيف كله طولا وعرضا ، نظرة واحدة أزالت كل أمل فى وهم جديد ، ولم أكد أصل عشتى وأخلع ملابس المدينة وأطويها فى حقيبتى (فليس فى العشة دولاب) ثم أرتدى ثياب الاستحمام، حتى بدأت حياتى من فورها تسير على نمط واحد لا يتغير ، كأن هذا النمط كان ينتظرنى انتظار العنكبوت لذبابة أخرى ضلت طريقها وساقها القدر لهذا المصيف ، وأيتنى أستيقظ مع الفجر فأؤدى بعض التمرينات السويدية ، وأستحم ، ثم أستلقى على الرمل وأقوم أجرى ، ثم أستلقى على الرمل ، فأقوم أستحم ، عن يمين وعن شمال رمال لاتنتهى ، وأمامى بحر شاخ وخرف فلا تنقطع ثرثرته ، وحكايته واحدة ، ينحدر قرص الشمس مسرعاً كأنه هارب وهو يقول لك : هذا هو الليل ياصديقى ، فماذا أنت صانع بنفسك . . ! أحس عندئذ أنى أصبحت معلقاً بين الأرض والسماء ، ولا أجد مفراً من أن أغمض عينى على فراش من حبال وكرات صلبة تزعم أنها من قطن ، وأين الكرى وقد نمت بعد الظهر ساعة أو ساعتين ، وهذا الماء المالح يلهب أحشائى لا أجد ما يبردها ، أمد نظرتى من الشقوق التى يصلنى منها أزيز الجنادب فلا أرى الليل إلا ستارا أسود كثيفا تسدله النجوم ـ

لو طعن بالسيوف لما خدش جلده ، نمت ليالى الأولى صريعاً من التعب، لم أجد وقتاً ولا همة لأنصت إلى ضجة أهل العشة المجاورة ، وفى الليلة التالية لحقنى شيء من الأرق ، وأخذت أتسلى بالإنصات إليهم ، فهمت من كلامهم أنهم يلعبون البوكر ، أسمع همهمة يعقبها صمت كالوجوم ، تقطعه صيحة غضب أو دق كف بكف أو ضحكة استهزاء ، ووصلنى دوى زفير كأن صاحبه يزيح جبلا عن صدره ، ولكنى لم أستطع تفسير صوت غريب ، كأنه شهقة بالوعة ضيقة يصب فيها ماء كثير ، أو صوت سمكة كبيرة تضطرب فى حوض ماء ضيق ، وامتلأ قلبى بالحنق عليهم ، اف لهم ، لماذا جاءوا إلى المصيف إذا كانوا يحبسون أنفسهم طول الليل والنهار فى هذه العشة الكئيبة ؟ إنهم يديرون ظهورهم لجمال الدنيا ، خجلا منهم ، حتى لا يراهم هذا الجمال وهم فى قبحهم يتجرعون أفتك الخمور ، خمر القمار ، هم المهزومون : نقلوا المعركة من ميدانها إلى ميدان فرسانه صور على ورق ، كل مخلوقاته لا تنعكس على العين إلا إذا أصابتها بحول عجيب ، فهى كلها ترى كأنها توائم لهم بطن واحدة ورأسان واحدة من فوق وأخرى من تحت، أف لهم، كيف يستبيح الصديق منهم أن يسلب مال صديقه الحميم ، وقد تكون للخاسر أسرة وعيال هم أحق بقرش واحد من هذا المال المغتصب ، إن صداقة المقامرين كصداقة الكلاب والقطط المدربة بين يدى سيد مرهوب ، ونمت ليلتئذ وأنا أحمد الله إنى لم ألعب القمار قط .

ثم أخذت أنام وأستيقظ وأتقلب وأنام ، وانتبهت على آذان ديك بعيد، فقلت هذه فرصة ينبغى ألا تفوتك، فتشهد مولد الفجر لترى صدق

وصف صديقك عبد الودود ، ولكنني لم أكد أغسل وجهي وأفتح باب العشة حتى كان قرن الشمس قد كفى وحده ليغمر الكون كله بنور ساطع هو نذير اللهب القادم ، لم أر إشارات غامضة ، وأرهفت أذني فلم أسمع البدار ! البدار ! ، وإنما سمعت نداءات باعة الفول المدمس والبليلة ، ونسيت من أجل الفجر - أو لعلي تناسيت عمدا - تمريناتي السويدية ، فقد أحسست حينما قمت بآلام مبرحة في مفاصلي وعضلاتي ، وبدا لي سخف منظري وأنا مستلق على الأرض وقد انكفأت فوق دراجة وهمية أدفعها بحركة دائرة من قدمي ، فلا تتحرك بي خطوة واحدة حتى تنبهر أنفاسي .

وكان يومي نسخة طبق الأصل من يومي السابق ، وفي المساء تريثت قليلا عند عشة جاري ، وسألته عن صحته وأحواله ، ولكنني اقتضبت الحديث اقتضابا لا يخلو من قلة أدب . وبالليل استبد بي الأرق وسرح ذهني وتذكرت وصف صديقي عبد الودود لمائدة القمار ، وأقسم أنه لو لم يحدثني عنها - وهو يحذرني منها - ويحيطها بهذه الألوان الزاهية الساحرة ، لما خطر ببالي أن أنصت بلذة كبيرة للضحكات ورنين الكؤوس تصلني من العشة المجاورة .

وفي الليلة التالية كنت كالسجين في غواصة غارقة في دياجير المحيط ورنين الكؤوس هو دقات معاول الإنقاذ ، وقلت لنفسي لقد ظلمت جارك حين اقتضبت تحيتك له بالأمس ، وخيل إلي أنه رجل من أظرف الناس .

وفي الليلة اللاحقة كنت جالسا مع جيراني حول المائدة أشاهد

اللعب ، وعلموني مبادئه فإذا هي سهلة بسيطة فوعدتهم أن أنضم إليهم من غد، وقلت في نفسي : لتكن تسلية ليلة واحدة، وليس من الضروري أن تتكرر ، ومع ذلك لم أخرج من العشة ليلتئذ صفر اليدين ، فقد ربحت شيئاً ، إذ أدركت سر صوت البالوعة أو السمكة ، وجدت أحد اللاعبين مصاباً بأبرشح في قدمه وقد نصحه الطبيب أن يضعها في ماء ساخن قبل النوم ، فجاء بجردل ماء ووضع فيه قدمه وهو منهمك في اللعب ، لئلا يفوته العلاج فما دريت، أأرثي لمرضه ؟ أم أزدري ضعفه ؟

وفي غد لم أكد أستيقظ مع الظهر وآكل طعامي ، حتى جاءني جاري يقول أنه مستعد لأن نلعب معاً وحدنا استعدادا لجلسة الليل .

ولم تخب معي قاعدة « حظ المبتدىء » فكسبت منه مالا كثيرا . فلما انعقدت الحلقة في المساء ، بدأ يخيف أصدقاءه مني ويثني عليّ ويقول إنني ثعلب مكير ، نابه أزرق ، وبدأت أكسب أيضاً ، ودارت الكؤوس واختلطت سجائرنا ، ثم ضاع مني آخر الليل بعض مكسبي . ولكني لم أخسر شيئاً من حر مالي ، وقمت أجر رجلي إلى العشة وأستلقى على فراشي وأنام من فوري وأصبحت لا أعرف ليلا من نهار ، ولا غداء من عشاء ، وفي الليلة التالية خسرت كل ما كسبت وزدت عليه قليلا من مالي ، فلم أستطع التراجع لأنني صممت على استرجاع هذا المال ، كأنني أدافع عن كرامتي ، وبعد يومين أو ثلاثة كنت قد خسرت جل ما عندي ، وأملي في استرداد مالي لا ينقطع ، لم أعد أرقد على الرمل أو أنزل إلى البحر ، تبخرت مشاريعي ، واضطربت معدتي وأصابني سعال لكثرة التدخين .

وفى الليلة اللاحقة خسرت آخر قرش أملكه ، لم يرث لى أحد من زملائى ، واستمروا فى الضحك واللعب ، وخيل إلىّ وأنا أتطلع إلى وجوههم أنهم من المحترفين الذين يرحلون إلى هذه المصايف لاصطياد الأغرار والحمقى ، وتسللت خارج العشة ورأيت الفجر ينبثق ، وسمعت نداء : البدار ! البدار ! وخيل إلىّ أن النداء موجه إلىّ ..

وحزمت فى الصباح حقائبى ، وعدت من هذا المصيف منهكا قد خسرت الجلد والسقط . .

نسيت فى القطار كل زملائى كأنى لم ألقهم قط ، إلا هذا الرجل الصموت البدين فى ثوب الاستحمام ، له بطن بوذا وصدر أنثى . وعينان واسعتان مستديرتان سوداوان ، إذ لا تزال تلازقنى إلى الآن نظرته الشاخصة كأنما تنبعث من فوهة مسدس بروحين .

وجاءنى عبد الودود مهرولا ، ورأيت نظرته تثب على وجهه وتتشبث بشفتى ، وتريثت قليلا وقلت له بلهجة حاسمة تشفياً وانتقاماً .

- ثق يا عبـــد الودود إننى استمعت لنصيحتك ولم ألعب القمار ، وإنما عدت لأن الوزارة ألغت أجازتى بسبب هجوم الجراد . .

سار إلى جانبى مطرق الرأس ، كأنه يخشى أن يرفع إلىّ وجهه ، فأقرأ اتهامه لى بأننى أخفى عنه شيئاً غاليا ، وأردت أن أزيد عذاب حيرته وشكوكه فملت إلى أذنه أقول :

ـ واستعداداً لسفرى للصحراء الغربية ، هل عندك خمسة جنيهات لأول الشهر ؟

لم يرد على ، وإنما سار بجانبى يغالب فكرة تدور فى رأسه .. وأخيراً لم يطق صبراً ، ووقف وأمسك بذراعي ، وهزه وهو يقول :

ـ يا أخى .. ! .. ألم أقل لك .. ؟ !

فى العيادة

وصلت إلى العيادة مبكراً ، فى ظنى أننى سأكون أول القادمين ،
دخلت حجرة الرجال فوجدتها تغص بالجالسين ، فلفظتنى إلى الصالة ،
ودلتنى نظرة متجسسة أن حجرة السيدات ملأى هى الأخرى لتم عينها .

جلست على إحدى كنبتين ، ووضعت يدى على خدى ، لحضرة
الدكتور لم يشرف العيادة بعد ..

ما أشق الانتظار . . قليل من الناس من يستطيع أن يخلو لنفسه ،
أحسست أنى وقعت من قعر قفة ، ولم يسم علىّ أحد ..

أنقذنى المولى بدخول زبائن جدد ، دخلوا هم أيضاً حجرة الرجال
فردتهم ، وألقوا هم أيضاً نظرة متجسسة إلى حجرة السيدات ، وجلس
إلى جانبى رجل نحيل يلبس فى عز الصيف كيسا من صوف غامق غليظ ،
قبته مستديرة ، وسطها رقبة كأنها مركبة على عرق ، لا أدرى كيف تقوى
على حمل عمامته الكبيرة ، جيبه مجرد شق تمتد منه اليد إلى جيب بعيد فى
قميص طويل تحتانى ، هذه هى مناعته ضد النشالين ، جلس وهو يئن
ويتوجع كأنه يستنفد كل طاقته على البوح خشية أن يزل لسانه بعد ذلك
ويقطع عادته فى التزام الصمت والانطواء على النفس ..

وجلس صاحبه على الكنبة الأخرى قبالتنا : شاب كل شأنه يدل على

لأنه من أبناء القرويين ، بذلته مقلمة ، بين كل خط وخط نصف شبر، حذاؤه لا تدرى أهو أصفر أم بنفسجي أم بين بين ، أنه تحفة فى فن دباغة الجلود ، ولكن وجهه ونظراته واطمئنانه فى جلسته تدل على قدرة كبيرة على الصبر ، لو غير بذلته وحذاءه ورباط رقبته المموج كعنق الحمام ، لكان فتى وسيما معسول العينين طويل الأهداب ، تنطق ابتسامته بالحياء والذكاء ، تنبعث تلقائيا كابتسامة الطفل من روحه ، لا يلوثها خبث ولا سخرية ، وتكشف فوق ذلك عن صفين من أسنان بيض سليمة ، أما اصفرار وجهه فقد عزوته إلى رهبة قدومه إلى العيادة شأن القرويين ..

وعلقت نظرتى بيديه ، فرأيتهما على غير ما أنتظر ، يدين طويلة الأصابع ، تكتم رعشة خفيفة ، تدل على حساسية قلب رقيق ، لم يفسده البطر أو التخمة ، أو تجرع كؤوس الرذيلة ..

قلت فى سرى : هذا الفتى البار يصحب أباه الريفى إلى عيادة الطبيب . .

بعد غفوة فتح الرجل فمه كأنه تذكر شيئاً هاماً وسأل الفتى :

ـ معاك نتيجة التحليل ؟

ـ أيوه ..

ـ وكشف الأشعة ؟

ضرب الفتى ببطن كفه المفتوحة على جيبه ضربات متلاحقة يطمئن أباه أنه يحمل الأوراق ، ولم تخطىء الأذن خشخشة مظروف منبعج ينضغط هواؤه ، فلم أتحول عن ظنى فهؤلاء الآباء يفضلون أن يحمل عنهم

أبناؤهم مثل هذه الأوراق التي لا يفهمها إلا الأفندية ، وقد رأيت أن للأب جيبا سرياً لا يصلح لادخال هذه الأوراق وإخراجها ..

أخذت أخالسهما النظر ، وأتمنى أن لو اتصل الكلام بيني وبينهما ، ولكنهما كانا منصرفين إلى حالهما ، مستغرقين في فكر مستحوذ عليهما ، بعد غفوة أخرى فتح الرجل فمه مرة ثانية :

ـ حسك تتلجلج ، والدكتور بيكشف عليك ، حط عقلك في راسك ، واحكى له الحكاية من أولها . .

طرطقت أذناي ، إذاً فالمريض هو الإبن لا الأب ، وزدت من تأملي للشاب ، فتجلت لي من جديد صفرة وجهه ، وتغضن الجلد الرقيق على شفتيه ، كأن في جوفه ناراً تحت رماد ، وقويت رغبتي في أن يتصل الحديث بيننا ، ولكني لم أفلح ، ولم تظفر نظرتي المتنقلة بينهما بنظرة فيها إجابة على الالتماس ..

قلبت المجلات مرة أخرى ، ووضعت يدي على خدي ، ولكني أنزلتها بعد قليل ، واعتدلت في جلستي وانحشرت فقد حدثت حركة تنقلات ..

دخلت علينا سيدة بدينة لم يخلق لها لبس الكعب العالي ، فهي تسير على نصف كعب ، ومع ذلك فقد انحنى اليمين منهما إلى اليسار ، وانحنى اليسار إلى اليمين ، فوجدت على العوج ـ لا على الاستقامة ـ راحتها ، لفت رأسها بطرحة سوداء ترضى أئمة المذاهب الأربعة ، وراءها فتاة طويلة القامة ، تلبس جونلة وشميزيت وحذاء بكعب أمريكاني ..

دخلتا حجرة السيدات ، ثم ارتدتا إلى الصالة ، وتريثتا أمام الكنبة التي يجلس عليها الأفندي ، فقام من مكانه ، وجاء وجلس بيني وبين

أبيه ، واحتلت الأم والبنت - فيما أظن - كل منهما ركنا فى الكنبة المقابلة ، ولم يقطع وصولهما الصمت المخيم على الصالة ..

وبعد قليل مال رأس الأم ، ومال إليها رأس البنت ، فتقابلا فى منتصف الطريق ، وجرى بينهما - والنظرات مرخية لا تتقابل - همس يغنى فيه لفظ عن جملة ، بقية المعانى تعبر عنها حركات الأصابع واليدين ..

لما رأيت الفتاة تضع كفها مفتوحة وتضغط بها مرتين على غطاء الكنبة ، أدركت بسهولة أنها تقول : « هذا كل ماعندنا » ثم حين بدأت تخربش بأظفر سبابتها هذا الغطاء كانت تقول ولا ريب : « ما باليد حيلة .. » هكذا تتحدث البنات والأمهات فى الأزمات . فإذا تدخل الأب الزوج أو الأخ بمنطقه الرجالى ، أفسد منطقهن النسائى ، وسال الكلام مدراراً بنغمة المحتج ، أو الصابر على تفهيم غبى مدلل ..

وأخذت أتأمل الفتاة من تحت لتحت ، شىء فى سحنتها يعيبها لأول نظرة .. أهو جلدها الذى فقد نضارته ؟ أم احمرار أنفها كأنما تسلخ طرفه من زكام مزمن ؟ ومع ذلك إذا أعدت النظر وجدت لها وجهاً - وإن خرج عن المشق الذى يتكرر عليه رسم الوجوه الجميلة - لا يضيع فى الزحام ، وتظل تذكر منه دلائل العزم والارادة ، من بروز عظمتى الخد قليلا . وصلابة ذقن مستعرضة غير هاربة ..

أجمل ما فيها شعرها ، تتهدل أستاره الناعمة الكثيفة على جانبى الرأس إلى الأكتاف وتغطى الأذنين ، تهتز هذه الأستار بدلال وخيلاء كلما أدارت رأسها يمنة أو يسرة ، فتطمئن عليها بيد قد بدأت عروقها تنفر ،

بليس على وجهها بودرة ولا أحمر ، واكتفت بالكحل ، فأشاحها بدلا من أن يصبها ، إذ بدا فى نظرتها بسببه أغوار ذكاء امرأة عتيقة مجربة ، وكان واضحاً أنها لا تلبس « سوتيان » وليس فى أصبعها خاتم ، هذه فتاة عانس قد فاتها قطار الزواج . . !! . . من منهما المريضة . . ؟

أعتقد أنى لا أخطىء هذه المرة ، فلا شك أنها الأم ، لا أريد أن أتخذ دليلى من قيامها بين الحين والحين إلى المرحاض ، تسير أمامنا محنية القامة تتأرجح ، تحسب أن هوت على ظهرها ضربة شديدة قسمت وسطها ، تشديدها على حقيبتها كأنما سيخطفها منها لص مترقب ..

انفلت من حجرة السيدات طفل مشتعل بالضحك ، يجرى محركا ذراعيه بشدة ، كأنه فى سباق ، ما غرضه ؟ وما وجهته ؟ الله أعلم ، فلحقت به أمه ، وخطفته وحملته على صدرها وساقاه تهتزان ، وضربت بكفها عجيزته فما زاده الضرب إلا امعانا فى ضحك ينثر لعابه على وجهها .

وأخيراً جاءنى الفرج ، كانت الأم هى التى لم تحتمل عبء الانتظار والصمت ، فإذا بها فجأة توجه كلامها إلينا ، نحن شركاؤها فى البلوى ـ كأنها تعرفنا من قديم :

ـ ده مش أصول ، والله لو كان فىّ حيل والمشوار مش بعيد ، كنت نزلت ورجعت بعدين لما تروق بلوزة .

تولى الأب ـ فهذه هى الأصول ـ مهمة الرد عنا فقال لها :

ـ الصبر طيب ، والعاوز أهبل ..

إتصل الكلام وجرى تياره أولا ببطء :

- انت حضرتك قدامنا على طول ؟ عشان نعرف دورنا جه لما تدخل ..

- أيوه ، قدامك على طول . لو كان علىّ ما كنتش جيت ، إحنا مش بتوع حكما ، إنما عشان ابنى ده . .

وأشار إلى جاره بأصبعه ..

- ماله بسلامته ؟

اعتدل الشاب فى جلسته وضم قدميه ويديه بين ركبتيه ؛ وانحنت قامته ، وكان هو الذى تولى الإجابة :

- حاجة فى الدم مش عارفينها الحكما ، مرة بيقولوا أنيميا خبيثه ، ومره يقولوا جرب فى كريات الدم بين الحمر والبيض ، ومش عارف مين بياكل فى مين ..

تدخل الأب قائلا :

- هوا اللى أهمل نفسه ، أصله ياستى واحدانى فى مصر ، عايش بعيد عنا من ساعة ما انتقل لديوان وزارة الأشغال هنا ..

أدارت الفتاة وجهها للنافذة ، وقالت الأم :

- وعملتم تحاليل ؟

قال الشاب : كتير ، لكن مش فاهم منها حاجه . .

فأسرعت الأم تقول : وريها لبنتى دى بنت مدارس ومتعلمه كويس . .

تقدم إليها وأخرج من جيبه المظروف ، وبقى واقفاً ، فقامت الأم وهى تقول :

ـ اقعد أقعد عبال مارجع ، أعمل إيه قسمتى كده ، رايحه جايه زى المكوك ، إمتى ربنا يتوب علىّ بقى ..

جلس الشاب ومال يريد أن يقرأ معها ، أنفاسه خالطت أنفاسها ، وشعر الجسدان أحدهما ينبض الآخر ، والفتاة فى أول الأمر تتأمل الورقة صامتة متئدة . قد زمت شفتيها ، ملامحها تنبيء أنها تثبت فى الأزمات ولا تتضعضع . . ثم التفتت إليه تقول بصوت رقيق :

ـ الفرق مش كبير بين الحالة الطبيعية وحالتك ، ومعامل التحليل مش كل كلامهم واحد ، بعد الدوا اللى حيوصفهولك الدكتور ، ابقى اعمل تحليل تانى ، وهو لازم حيقولك كده : . .

« جبنا سيرة القط جه ينط . . » شرفنا حضرة الدكتور ودخل مسرعاً يتهرب من عيوننا ، ودبت الحمى فى الجالسين ، وبدأوا يدخلون واحداً بعد آخر ، شغرت مقاعد فى حجرة الحريم ، ولكن الأم فضلت البقاء معنا . وحليت لها الجلسة بعد أن توثقت فى الصالة مبادىء معرفة ، كما نقول مبادىء زكام .

انبعث من حجرة السيدات صوت بكاء طفل ، فابتسمنا جميعاً ، إذ علمنا ـ وإن لم نره ـ أنه صاحبنا الشيطان ، ثم سمعنا أمه تهدهده بلحن ليس له كلام ، فيخفت بكاؤه إلى أنين ثم ينقطع .

للفتاة الآن نظرة تائهة لا تثبت لا على شىء ولا على أحد منا ، هى محرومة من الأسرة والبيت والأطفال ، طفل يخرج من أحشائها ويلقم حلمة ثديها ، ويجد فى حضنها سكينة ، ما ألذ نشوتها حين تتأمل أظافره الصغيرة فى يده المضمومة ، تود حين يتثاءب ويتمطى أن ترشق

كل وجهه بقبلاتها ، ولو ضايقته قليلا ، هو قطعة من قلبها ، إذا لم تجد بها عاش أخرس حزينا . .

رأى الشاب أن يتذرع بحسن الأدب فى مبادلة الاهتمام بمثله ، ليعيد اتصال الكلام ، فسأل الأم هذه المرة :

ـ وحضرتك عندك إيه ؟

ـ دوزنتاريا قديمة بعيد عنك . .

ـ لازم الهانم الصغيرة واخده بالها منك . .

ـ يابنى أنا ماليش غيرها هى اللى مالية على البيت . .

ـ أمال أعمل إيه وأنا عايش لوحدى ؟

بان فى كلامه أنه ضاق بوحدته ، لاشك أنه لم يتزوج من القرية لأنه يطمع أن يتزوج فتاة من أهل العاصمة ، متعلمة ، تعرف تلبس وتقلع ، وتمشى مرفوعة الرأس لا تتعثر ، ذراعها فى ذراعه . .

كان قد انقطع عن التفكير فى الزواج بعد أن سطا أبوه على ما اقتصده من مرتبه ، مؤكداً سداد الدين على القطن ، ولكنه منذ بدت عليه أعراض المرض وهو يحن حنينا موجعا لامرأة تعنى به ـ كما يقول لسانه ـ وتذيقه لذة الجنس كما يصرخ ضميره ، شىء خفى يلح عليه إلحاحا شديدا : أن يسرع ، الزواج هو الذى سيتشبث به فى الحياة ، سيكافح المرض بعزم أصدق ، أبعد عن فكره أن مرضه خطير ، أو أنه سيموت ، اعتقاده مع ذلك أن الموت لن يخجل من اختطافه وهو يعيش فى وحدته ، لا يتردد نفس بجانبه ، وسيخجل بلا ريب إذا اختطفه من أحضان زوجه وأولاده .

جاء الدور علينا ، ونسى التمورجى ، وحار أينا قدم قبل الآخر : أنا أم الشاب القروى ، فأخرت نفسى عمداً لأشهد بقية المسرحية التى تجرى وراء الأستار لا أمامها ، وقام الأب مع إبنه ودخلا حجرة الطبيب . .

أدارت الفتاة وجهها إلى وجه أمها ، ونظرت إلى عينيها ثم غضت بصرها ، هذا الفتى لو وجد من يعنى به واختار له ثيابه وحذاءه ، ورفع جوربه المدلدل على حذائه ، وقص له شعره على القفا بالمقص لا بالموس ، لكان فتى وسيما ابن حلال ، لا يسرع إلى الخيانة ، سيقال أنها تزوجت من ابن فلاح ! وما العيب ؟

ولكن ما معنى هذا الكلام ؟ أيمكن أن تكون قد راقت له ؟ أما هى فإنها بمثله راضية ، وهل تتم خطبة فى عيادة ؟ لتطو هذه الأوهام كما طوت من قبل كثيراً من أمثالها . .

رفعت نظراتها إلى أمها من جديد ، فقرأت فى عينيها أنها فهمتها ولكن فى قلبها سؤالا استحت أن تشى به نظراتها ، والشاب جالس أمامهما ، فلما خلا الجو حان لهذه النظره أن تفصح ، فقالت ـ تنوب عن اللسان ـ للبنت تسالها :

ـ يعجبك وهو مريض ؟

فغضت الفتاة بصرها ونكشت غطاء الكنبه بأظفر سبابتها . .

بعد قليل خرج الشاب من باب حجرة الكشف والروشته لا تزال مفرودة فى يده ، وانطلق مندفعاً نحو الفتاة ، فإذا هى أسبق منه فى القيام والتقدم نحوه بلهفة ، وتناولت الورقة قبل أن يقول لها :

ـ شوفى بقى كتب لى إيه ، زى ما قلتى تمام ، لازم أعمل تحليل تانى ، دا طمنى . .

ـ مبروك ، ألف مبروك . .

ـ لكن أنا عاوزك تبقى تشوفى كشف التحليل الجديد كمان .

فأسرعت الأم تقول : أهلا وسهلا ، شرفونا ، احنا بيتنا مايتوهش البيت أبو دورين وسط العمارات قدام دوران شبرا . .

وخرج الفتى يتلفت وراءه ، وأبوه يدفعه فى ظهره قليلا قليلا . .

عنتر وجوليت

هو مسكن فقير ، أمامه نصف سطح ، تشقه ـ كأوتار العود ـ حبال الغسيل .

فرحت به الست كوكب لأنها تكره المساكن المكتومة ، ولا تطيق العيش إلا حيث يخفق الهواء .

زوجها حسن أفندى ، إذا جلس هو أيضاً على الكرسى بجوار النافذة البحرية ، وقد انتفخ عبه ، فهو أهنأ الناس .

يمد نظره ، يتجاوز الميدان الجديد الذى هدم الحواجز ، فيصل إلى العمارات الكبيرة ، فلا يقول لنفسه كيف يعيش المنعمون ؟

هو راض بقسمته .

وقد تستقر نظرته على الفيلا البعيدة ذات الحديقة الجميلة ، يحسب أن نسيم الليل يصله معطرا بالورد والفل والياسمين .

أولاده لا يتركونه لأحلامه ، سرعان ما يتجمعون حوله ، أولاد عديدون ، فى أعمار متتالية ، فيلعب معهم ويعابثهم .

فى هذا البيت اختلاط عجيب ، حين لا حجاب للسماء تنهدم القيود والسدود .

لا تدرى هل الكبار أطفال ؟
أم الأطفال كبار ؟
لا تروى فى هذا البيت حواديت للأطفال . بل حواديتهم .
هى الحياة نفسها .
يتسلى الأبوان أحياناً بالاستماع إلى أولادهم وهم يتلون دروسهم ،
حيرتهما فى الفهم أشد من حيرتهم .
قاموس الجميع واحد .
إذا جاءت النكتة من مفارقات الحياة لا من تلاعب الألفاظ .
ابتسمت لها عينا الطفل الذى لا يكاد يحسن الكلام .
حين يزورهم جدهم ، ويجلس الجميع حول المائدة .
أكلوا كلهم
بنهم مماثل
من طعام واحد
لا فرق بين الشيخ الأهتم .
والطفل الأكرش ، لم يتجاوز عمره سنة واحدة .

* * *

الست كوكب ملكة البيت .
هى دائمة الابتسام .
لا تحمل هما .
لم أسمعها قط تشكو .
أو تؤنب زوجها .

أو تقسو على عيالها .

أو تشيد بفضائلها

كان وإخواتها لا ترد على لسانها ـ كبقية النساء ـ حسرات على مجد تليد موهوم .

قلما تعنى بنفسها .

لأنها تعنى بجيش لجب .

إذا قامت من النوم .

وغسلت وجهها .

ومشت بالمرود بين أهدابها .

وربطت شريطاً أسود حول رقبتها (ولها رقبة جميلة كرقبة الأوزه)

اعتبرت أن زينتها قد كملت .

هى كريمة . . رغم فقرها .

قلما رأيتهم يطبخون .

فإذا طبخوا .

فصنفاً واحداً .

وإذا كان به لحم .

فهو يوم عيد .

ومع هذا .

لا يمر يوم دون أن يدخل عليها .

من يجد فى لقمتها رغيفا .

أما المقرىء المكفوف .

فهو ضيف مزمن .

* * *

تودها جارة إيطالية .
فتتضاحكان ضحكة رومية بضحكة بلدية .
وتزورها أحياناً زميلة من أيام المدرسة الابتدائية لهاسيارة كاديلاك
فيميل الرأس إلى الرأس ويدور همس طويل .
وشخص حائر ساخر .
يتخفف عندها من حيرته وسخريته .

* * *

إذا لم يجدوا مقعداً .
جلسوا على الأرض .
وغمرتهم سعادة لا حد لها .
ويمر الوقت سريعاً .
كما تمرق إبرة دؤوب بدفعها كستبان فى إصبع خياطة بارعة فى الكشكشة .
نوافذ البيت لا تحجز الهواء .
ولو قفلت .
لبقى فيها .
لوح مكسور .
حتى رتاج الباب .

بخلوع .
وماذا يظفر به اللص . . .
فى هذا المسكن ... الفقير ؟

إذا دخل سيخوض .
أكواماً من اللحم .
ولن يفلت من عنتر ؟

نعم . عنتر .
هو كلب الأسرة .
كلا .
بل هو فرد من أفرادها .
ولكنه قبل كل شىء .
كلب للست كوكب .
لقيته ذات يوم .
ضالا فى الطريق .
فترك الخلق كله .
وتبعها .
زجرته فاختنى .
ثم عاد ودار حولها .
نهرته فبصبص بذنبه .
ثم ذهب يراقبها من بعيد .
راوغته .

فوجدته أمام باب الدار .
صرخت فيه وهى تهشه كالذباب .
يا أخى ! غر من أمامى .
مالك ملقح جتتك علىّ .
رآها وإن زجرته
تكلمه كلام خلق الله ، كما ينبغى
من بعضهم لبعض
رغم اختلافهم أكفاء عند ربهم
أحنى رأسه ، وتركها
ولما دخلت البيت
لم تكد تقفل الباب
حتى سمعت خربشة
لو على وجه طفل
لما خدشته
ففتحت له الباب وقلبها .

* * *

لا تسلنى عنه وقت أن مرضت ، ولزمت فراشها .
صد عن الأكل
لم يقم من مكانه ، تحت أقدامها
هزل جسمه
أجرب جلده
ذبلت عيناه

دموعه لا تسيل من مآقيه
بل تهبط إلى جوفه
لم أشهد قبله مخلوقاً مثله ، يكتم آهاته
يمزقه التردد بين الجزع والحنو

* * *

عنتر كلب ، أسود غطيس ، أجرد
لا تعرف له أصلا ولا جنساً
كلب وقاح ، سككى . .
أظافره طويلة
إذا مشى
حسبت أنه يمشى على ألواح من زجاج

* * *

عنتر ليس من الكلاب المدربة
لا يعرف لعبة واحدة
لا يبالغ فى الحفارة بالقادمين
يخرج حين يشاء
يغيب كما يحلو له
ولكنه لم يتأخر يوماً واحداً ، عن الغروب .
كأنما يخشى عليهم الليل
إذا عاد ، جال جولة سريعة بين الجميع .
يريد أن يطمئن عليهم كلهم

وإنهم ، كما تركهم
لم ينقص منهم أحد

* * *

عنتر لا يطيع أمراً ، ليس فى هذا البيت سيد ولا مسود .
إنه يحب أن يخلو لنفسه
يتمنى أن لا يلاعبه أحد
أو أن يربت على ظهره
ولا يريد هو أن يفسد على أىّ منهم ما هو منصرف إليه ، يكفيه
أن يندس بجانب الست كوكب .
إذا جلسوا للطعام
انشقت الأرض
فإذا هو بجانبهم
يأكل مما يأكلون . .
إذ لا يتخلف من المائدة فتات

* * *

كم من مرة تأملت عينيه
هو كلب جائع قليلا
ولكن روحه تجد أوفر طعام
تقول لى نظرته :
ليس فى حياتى مشكلة
حاجاتى أقضيها بنفسى
ليس لى عندك مطلب

ولو عظت الثلوج الأرض جميعاً
كأنها الجبال الجاثمة
لوجدت الدفء على البلاط فى هذا البيت .

* * *

عنتر معروف فى الحى كله
له صداقات مستقلة
بينه وبين صبى نقاش فى حى آخر بعيد
علاقة مودة لا تعرفها الأسرة

إذا صادف دكان النوبى ، بائع السجائر ، ورأى عمامته الأنيقة وجلبابه الأبيض الناصع دار دورة واسعة ، حتى لا يمر أمامه .

* * *

وإذا كان حسن أفندى يتأمل الفيلا الجميلة أحياناً ، وتحلم أنفه أنها تشم عطر زهرها ، فليس فى الفيلا عين رضيت أن تلم بمسكنه أو أنف شاقها أن تحلم بكابوس رائحته . . .

ومع ذلك

لا تخلو الفيلا من العيون السليمة ، والأنوف الكريمة ، وفى مقدمتها أنف إجلال هانم .

أنف كبير معقوص على فمها كأنه منقار ببغاء فى مخالبه خواتم من الماس والياقوت .

لا عجب إن كانت نداءاتها للخدم أشبه بصرخات جوارح الغاب ، تريد بها أن تشل ضحاياها بالقاء الرعب فى قلوبهم .

يا عبد الفتاح
هذا هو البواب
يا عبد العليم
هذا هو الطباخ
يا نفيسة
هذه هى الخادمة
يا كمووولة
هذا هو تدليل اسم زوجها السيد كامل .
وهل يبقى مع الصراخ تدليل ؟
فأنت ترى أن إجلال هانم اختارت خدمها ـ وزوجها أيضاً ـ
أشخاصاً لا تخلو أسماؤهم من حروف المد صعود ونزولا ومضيا
كهبوب الريح حتى ينطلق صوتها إلى آخر مقامات السلم .
هى لا تناديهم إلا مراراً قليلة .
ومع ذلك .
تـكفى لأن تطعن سكينة الدار .
طعنة نجلاء .
تخر بعدها صريعة إلى الأرض ولا تقوم أبداً .
إن لم تترك وراءها ضجة .
تركت فراغا أشبه بقلب العواصف .

* * *

نوافذ هذه الفيلا مغلقة .

لا تفتح أول الصباح حتى تغلق ، خوفاً من الذباب ، ولئلا تحيل الشمس الستائر الحريرية والصالون الأوبيسون .

ثم تظل النوافذ مغلقة .

والدار معتمة . .

لا تسمع فيها ضحكة طفل .

إجلال هانم عاقر .

فصبت كل أمومتها وحسراتها على رأس جوليت .

اشترتها بثمن جوهرة كريمة .

تسلمتها من البائع ومعها شهادة ميلاد ونسب عريق .

قال لها إنها نسخة طبق الأصل ، والأصل صورة فى كتاب . .

* * *

جوليت جدودها الأولون من بكين عاصمة الصين .

جسمها ضئيل . .

أنفها أفطس ، عيناها جاحظتان .

ولكن شعرها حرير وذهب .

وجهها مستدير .

أشبه بوجوه الأقزام .

أظافرها مقصوصة .

عيونها وفمها تمسح مرارا بمنديل .

تأكل فى ميعاد ، وبحساب .

إذا مرضت زارها الطبيب .

وعولجت بالحقن الغالية . .

وتؤتى لها الهدايا . .

* * *

جوليت تعرف كثيراً من الألعاب .

تقف على ساقيها وتهز يديها . .

إذا أمرتها إجلال هانم أن تقفز لحجرها ، أطاعت .

أن تنزل عن المقعد فوراً .

لم تتلكأ .

تذكرنى بكلاب السيرك .

بعض حيوان السيرك لا يبرع فى أداء أدواره إلا بعد أن يصيبه على يد مدربيه أشد العذاب ، من تجويع ، وضرب ، وكى ، وخلع أضراس .

إذا كانت جوليت لم تضرب أبداً فإن الضرب عندها كان أهون من صراخ إجلال هانم .

إذا انطلقت الصرخة .

تناول كموله صحيفة وتشاغل بها .

أما جوليت فتنطلق مسرعة إلى أقرب مقعد تختبىء تحته ، حتى تنتهى الواقعة .

لو سمعت هذا الصراخ من ليست هى مخلوقة لحبه ، لهان عليها الأمر .

وأعرضت عنه .

ولربما نبحته أو عضته .
ولكن ماذا تفعل جوليت مع من يحضنها ويخنقها :
أسلمها النفاق الذى عفنت عليه روحها إلى السوداء .
إن الكلاب تصاب أيضاً بالأمراض النفسية كالإنسان .

فجوليت أبدا مرتعبة .
تتوقع الكوارث .
مر الدقائق عليها ضربات مطرقة فوق رأسها
حارت هل تقعد أم تقوم .
هل تجرى يميناً أم شمالا .
إذا لم تكن فى حضن سيدتها فهى تحت مقعد ، أو منزوية فى ركن .
تقول إجلال هانم إنها هادئة مهذبة .

* * *

وكما تأملت عينى عنتر ، تأملت عينى جوليت ، سيحسبنى الناس مغاليا إذا قلت إنى وجدت نظرتها تتهرب منى .
منعها الرعب والكبرياء من أن تشكو إلىّ أو أن تستجدينى بعض الفهم والعطف والحنان .

* * *

جوليت لا تخرج إلا فى صحبة إجلال هانم ، فى السيارة .
لا تتخطى وحدها أبدا باب الفيلا .

فى الحديقة متسع لكل مطالبها .

لذلك أجزم أن عنتر لم يقابل جوليت أبدا . .

* * *

ولكنهما اجتمعا ذات يوم فى أنحس ساعة ، فى أشأم مكان .

لا أدرى ، هل ضاقت جوليت ذرعا بالحياة ، واستطاعت أن تغافل إجلال هانم وعبد الفتاح البواب وانطلقت هاربة على أن لا تعود ؟ .

أم رأت باب الحرية يفتح لها عفوا ، وبمقدار ، فأرادت أن تشم نسيمها ولو برهة قصيرة ، وأن تملأ منه الرئتين ، ثم تعود للدار ، كما عاد المارد للقمقم .

إننى أرجح الفرض الثانى .

لأن إرادة جوليت قد ماتت .

هى إذا كانت فى رعب دائم من إجلال هانم ، فإن فى قلبها رعباً خفياً أشد وأعظم ، رعباً من الحياة ومخاطرها المجهولة . .

أما عنتر ، فكان عائدا من زيارة صبى النقاش وكانت قد وصلته موجة لاسلكية بأن الأرغفة نوشك أن توضع على المائدة .

وشاء القدر أن تمر عربة الكلاب ، وهى صوراً مصغرة لأربعة أشياء جسام ، نكر ، بشعة ، اختلطت معاً .

قفص الاتهام .

عربة نقل المساجين .

زنزانة اللومان .

الغرفة السوداء أم عشماوى ..

أليست الأنشوطة التى يطرحها الجندى الكئيب على الكلب الضال ، أشبه بأنشوطة المشنقة ؟

وتمت الجولة ، فإذا بعنتر فى عين ، وجوليت فى عين مجاورة ، انكشف خزيهما لأعين الناس . كلاهما يرقد على القش ، هو عنده وثير ، وعندها شوك وبراغيث . ولكن كلاهما قد خرس ، إذا نبح خرج نباحه أنينا واستغاثة ، وولولة تندب سوء الحظ .

* * *

لم تمض ساعة واحدة .

حتى كانت إجلال هانم قد أقامت الدنيا وأقعدتها .

دقت التليفونات .

واتصل كمولة بالبوليس ، والمحافظة ، والطب البيطرى ، وبعض أصدقائه فى وزارة الزراعة .

وعلم الأقرباء والأصدقاء بالنبأ العظيم .

وكان محجر الكلاب لم يتسلم جوليت إلا قبيل الغروب ، وكان أوشك أن يغلق أبوابه .

ومع ذلك أمر مديره بأن يظل مفتوحا إلى أن يصل كمولة فيتسلم جوليت .. حتى لا تقضى الليل فى الغربة والوحشة ، وحتى لا يسهر هو إلى الصباح مع قلق زوجته ..

وانطلقت السيارة بالسيد كامل وإجلال هانم تنهب الأرض نهباً .

* * *

لم تلحظ كوكب أول الأمر غياب عنتر ، جاء المغرب ولم تسمع وقع أظافره على السلم .

ولكنها حين سمعت أذان العشاء .

تبين فيه قلبها الخاشع تنبيها خفيا موحياً إليها .

فصرخت عنتر !

شمل البيت هرج ومرج .

كوكب أسرعهم نزولا .

دارت على الجيران .

طافت بالشوارع .

سألت أصحاب الدكاكين .

بل استوقفت بعض المارة .

ثم لجأت إلى العسكرى ، فأخبرها بكلام ملتو مشوش ، ولو كان أفصح لما فهمته أيضاً ، خلط لها بما ينبغى أن تفعله فى الصباح .

من الذهاب للشفخانة .

لدفع الرخصة والغرامة .

كم ؟

جنيهان أو ثلاثة .

صمتت لحظة ، وانكسرت رأسها على صدرها .

فى كيسها ستة ريالات ، وقد بقى على الشهر عشرة أيام ، إنها تستطيع

أن تقترض من معارفها وجيرانها ، ولكن كيف السداد ، وقد كثرت الديون .

لو جاءتها هذه النقود لكست بها العيال .

سارت على غير هدى ، وقدماها تقودانها للدار .

تتنازعها الهواجس .

يد الأم المدبرة فى النار ، وقلبها تقول لها ضرباته : لا . . لا . . .

إنها لم تعص قط قلبها .

إذا كان النداء لإحسان أو إغاثة .

وليست هى التى ترضى بأن تتلوث بعصيان هذه المرة .

والمنادى هو غنتر .

إنه روح .

أحق بالنجدة .

لأنه أخرس

وعيالها ؟

تلفتت حولها . . خلت الشوارع من المارة ، إلا أشباحا هدها الإعياء والملل .

رفعت وجهها للسماء ، فرأت الليل يطبق على الأرض . .

أغرورقت عيناها ، فأخرجت منديلها ووقفت تمسح دموعها . .

الودع

لا أعتقد فى (فتح البخت) ولا يدخل فى رأسى . . لا أفهم كيف يؤمن بعض الناس بضارب الرمل مع أنه يخط بنفسه وبإرادته ما شاء من السطور . ولو أراد لجعلها تنبىء بالشر كما تنطق - فى زعمه - بالخير .

ثم الكتشينة ، من الذى جزم بأن (الواحد) خطاب (والثلاثة) سفر (والأربعة) منزل ، من وضع هذه التفسيرات ، وهلا يجوز أن يتغير معناها فجأة ، فإذا قالت العرافه أنك ستتسلم خطابا فتكون على سفر ، أو هنأتك بنقود قادمة فإنها فى الحقيقة تنعى إفلاسك ، ثم لا أدرى كيف يرتبط حياة الإنسان بتفنيطة الكوتشينة

والأسخف من ذلك فنجان القهوة ، فكيف يتوقف حظ الإنسان - بل ومستقبله - على نوع البن وكثافة القهوة ، وقد قالت إحدى العرّافات مرة لزبون أنها ترى فى فنجانه اضطرابات شديدة ، فأجابها : لا عجب فالبن الذى شربته من الكونغو .

جالت هذه الأفكار فى رأسى وأنا جالس على كرسى واطىء من القش أمام العجوز السودانية التى تفرش الودع عند الحوض المرصود ، منذ سنة وأنا أزورها كل يوم سبت لأنها لا تفرش يوم الجمعة ، وقد خبرت بالتجربة أن الودع - فى أول أيام العمل - يكون صادقاً نشطاً لا يكلفت الحديث ولا يضنّ بأسراره ، أما فى بقية الأيام - وبالأخص

فى أواخر الأسبوع ـ فإنه يصبح متشابه النغمة ، ضيق الصدر ، يكاد يشعر الإنسان إنه ملّ الحديث وسأم تفاهة البشر ، لا يرى أمامه إلا جشعاً يستعجل خيراً لا يستحقه ، أو جباناً يخشى خطراً موهوماً ، أو نسوة متآمرات يفتحن قلوبهن ، فإذا الصداقة المعلنة لجيرانهن ومعارفهن عداوة مستحكمة وبغض مقيم ..

قالت العجوز لى :

ـ هذا الذكر وهذه الأنثى يعيشان معاً فى هناء ، ولكن هناك امرأة طويلة سمراء ، توقع بينهما ، ستأتى لك ـ بعد ميعادين ـ ورقة رسمية من طرف الحكومة ، انت دلوقتى فى بيتك ، لكن قدامك فرش جديد ..

أما المرأة السمراء الطويلة فقد عرفتها ، هى (أم محمود) الدلالة السمجة الثقيلة ، التى بعد أن أغرقت زوجتى فى الدين لاحظت أنها تريد أن تستغل سلطتها وتجر زوجتى معها فى مشاوير لا أعلمها ، فنبهت على زوجتى ألا تسمح ـ لهذه المرأة بدخول المنزل مطلقاً ، ثم رهنت الساعة والكتينة وسددت الدين ..

ولكن هذه الورقة التى سأستلمها من طرف الحكومة ، هل تكون خطاب استدعائى للوظيفة التى حفيت أقدامى فى السعى لها ، ثم آمل أن يكون الميعاد يومين فقط لا شهران أو سنتان لا قدر الله .

أما الفرش الجديد ، فقد اكتشف الودع إحدى رغباتى التى أخفيها فقد عزمت منذ زمن طويل أننى فى أول شهر أوظف فيه اشترى بساطاً جديداً وسريراً (جديداً أيضاً ـ ولو أنه (خرج بيت) .

ملأنى الودع اطمئناناً وثقة فى المستقبل ، وزاد اعتقادى فيه رسوخاً

كم أود من الذين يؤمنون بالفنجان ، والكتشينة والرمل أن يتركوا سخافاتهم ويؤمنوا بالودع ، هذه الحفنة التى تسمع خشخشتها فى قبضة المرأة ، هل هناك تشبيه أبلغ منها عن ازدحام البشر فى الحياة واصطدام بعضهم ببعض . أمامك (ذكر وأنثى) يجتمعان ، ثم يفرق بينهما ذكر أبيض يغوى الأنثى، وأنثى سمراء تستهوى الذكر ، وهل فى الحياة مشكلة غير تلك ؟ ثم هذه الزمردة الخضراء ألا تراها تمثل الرخاء حقاً ، والودع لا يعمد إلى خداع ، والمال عنده يتمثل فى (عشرين خردة) صحيح أنك لو وجدتها فى طريقك - كما تقول العرافة - لما بهرك الكنز ، ولكن على نسبة حجر الودع تكون نقوده ...

* * *

عندما رجعت للبيت ، أتت زوجتى لتخلع الجاكتة ، فقلت لها بكل تؤدة وهدوء .

- أنا مش قلتلك (أم محمد) ما تدخلش هنا . .

ولشدة دهشتى لاحظت أنها بهتت واصفرت ، وتركتنى فجأة وفتحت باب السلم ، ووقفت تردح لجارتنا فى الدور الأول :

- انت يادلعدى ياست اسما - يعنى لسانك ما يسكتش ياميت ندامه على كده ياخواتى ، عملينك ددبان على بابنا والا ايه ..

وانهالت بسباب زادنى ايماناً فى مقدرتها على الردح .. زالت دهشتى ودخل محلها سرور طائل ، هاهو الودع قد تحقق شطره الأول ، فمتى

يتحقق شطرة الثاني ، وتبعث لى الحكومة بالورقة التى انتظرها ..

***

فى يوم الإثنين جاءنى ولد صغير وقال لى (تحت واحد أفندى عاوزك) نزلت فوجدت شخصاً لا أعرفه ، تحت ابطه رزمة ورق ، وبيده قلم ابنوس يكتب به شيئاً أقرب للهروغيليفه منه للعربية . . دق قلبي وقلت له :

ـ خير انشاء الله :

ـ أنا المحضر.. تمضى ولا تختم .

ـ على ايه .

ـ إعلان دعوى سب علنى مرفوعة عليك وعلى الست زوجتك من اسما هانم ، الجلسة يوم الخميس اللى جى .

وفى السلم فهمت مصيبتى ، ودخلت على زوجتى وأنا واضع يدى على رأسى .

ـ انبسطى ياستى ، الميعاد فات فات ، الخناقة كانت أول امبارح يومين تمام ، والله ماكدبش ، مافيش أمل فى اللى كنت متعشم فيه ..

وفى الصباح دار عراك أشد وأحمى بين زوجتى والجارة ، وفار دمى .. قلت لها :

ـ انت عايزه تجبيلى كل يوم قضية ، راحت شاخطه فى وقالت :

ـ ليه ياحبيبي ، أنا أريحك مني ولا تزعلش ..

وخرجت زوجتي غضبي ، فما أناذا أريد أن أمنع قضية غرامتها ٥٠ قرشاً ، فجررت على نفسي قضية شرعية فيها نفقة وحجز وحبس . فقد هجم على البيت ـ أثناء غيابي ـ بعد ثلاثة أيام عسكريان وأقاربها مع أربعة عصبجية وحملو العفش جميعه ..

ولما عدت وجدت نفسي على البلاط ، حتى القلة لم يتركوها .. فوقفت حائراً أسأل نفسي :

ـ يكونش دا الفرش الجديد ...؟!

القسم الثانى

اللوحـــات

إلا القــراءة

لكل داء دواء يستطب به   إلا القراءة أعيت من يداويها

ـ يا أخى : إننى احفظ هــذا البيت من قديم : إلا الحماقة لا تخالط على !.

ـ ومن يدريك لعلى أقتبس بينى اقتباساً شديداً من هذا البيت القديم ، وما أحد أفضل من أحد.

ـ ولكن اقتباسك لم يصلح ، بل أفسد ، هذا سر ثورتنا على الاقتباس ، والا ، فكيف تكون القراءة وهى سبيل المعرفة والحكمة ، صنوا للحماقة ؟ .

ـ هى عندى عين الحماقة، بل أم الحماقات كلها ، كما نقول « أم القبيح ».

ـ انت مغرم بالمتناقضات ، تظنها سر الفكاهة ، ووسيلة مثلى للفت الأنظار .

ـ سامحك الله ! قد فتحت لى بكلمة « المتناقضات » باب الحديث ، وسأشرح لك مسألة تبدو ـ فى مبحث داء القراءة ـ أغرب المتناقضات . فالمشاهد أن المصابين بهذا الداء هم فى أغلب الأمر أضعف الناس نظراً ، وأعشاهم بصرا ، جفونهم محمرة ، وأهدابهم منتوفة ، ودمعتهم سهلة ، يلبسون نظارات كالملاحات تتضاءل مقلتهم من ورائها إلى حجم حبة العدس ، حولها دوائر كأنها عطارد ، أو تتضخم ، كما لو اندلقت محبرة على

محاجرهم وقد تسيل على خدودهم . يرق لهم قلبك حين تراهم فى وهج الشمس على محطات الترام والأوتوبيس ، يترصدونه بقفزات قصيرة سريعة ، ذات اليمين واليسار ، وإلى الأيام والخلف ، كما يترصد حارس المرمى كرة يحاوره بها غريمه ، كفوفهم رفوف على جباههم تظلل عيونهم وقد أراد أحدهم ذات مرة ، وقد رأى شبحاً ضخماً قادماً إليه من غير بعيد ، أن يطلب العون ممن ظن عنده العون فسأل جاره (بالله خبرنى - من فضلك - الأوتوبيس القادم ، أهو رقم ١٧ أو ٢١) - وانظر أى فرق بين الرقمين ، فقوس العميد ظهره ، ودقق النظر وانعمه ، ثم أجابه : « دلنى أولا عن الأوتوبيس أين هو » كان هو الآخر أخاً لشهاب الدين .. ثم ضاع وسط زحام الصاعدين والهابطين ، ومضى الأوتوبيس وعلم رقمه عند الله وحده . . لو تأملت حركات رؤوسهم ألحقتهم بهذا الجنس من الحيوان الذى يتخذ مسكنه فى سراديب الأرض الويل له إذا وقعت عليه الشمس ، أما حركات رؤوس العميان فشىء آخر لأنها تشبه ...

- بالله عليك ، عد إلى موضوعنا ، فقد انقبض قلبى من حديث العميان وأنصاف العميان .

- كنت سأحدثك عن أشياء عجيبة عن بعض أنواع النباتات التى تعيش فى الظل ، كيف تهتز وتميل ، وتلف وتدور ، طلباً لشعاع الشمس .. أنت حر .. إذن فاعلم أن ليس بصحيح أبداً أن الرجل يقرأ ويدمن فى القراءة فتمرض عينه ويذبل بصره ويصبح واحداً من هذا الجنس الذى وصفته لك ، بل العكس هو الصحيح ، وهذا هو باب

الغرابة ووجه التناقض . فقد دلني طول امتحاني لهؤلاء الناس وتتبع أحوالهم ، أن الرجل منهم يصاب أولا في مقتبل عمره بضعف البصر فلا يجد راحة من عذابه إلا في القراءة . وكلما ازداد بصره ضعفاً ، ازداد إدمانه للقراءة وانكبابه عليها ، فأدى ذلك بدوره إلى اشتداد علته .. وهكذا دواليك إلى آخر هذه الحلقة المفرغة التي لا آخر لها . فليس الأصل في ضعف البصر عندهم إدمان القراءة ، بل الأصل في إدمان القراءة هو سبق ضعف البصر .

ـ وما تفسير ذلك ؟

ـ قدر أنه أصابك ما أصابهم ..

ـ فأل الله ولا فألك .. دعني أسترزق !

ـ هذا فرض . لا تتطير .. ستجد أن قد حيل بينك وبين العالم بستائر بين الرقيقة والصفيقة ، أو أنك تطل على الطريق من نافذة مغلقة زجاجها مغبر .. لن يكون عمل عينيك رؤية الأشياء ، بل التلصص عليها . وهذا إرهاق شديد ـ لو علمت ـ للروح والعقل ، ستختلط عندك الألوان وتنبهم الحدود ، وستذاب الدنيا كلها في خضم مائع ، وتتموج القسمات والملامح حتى تكاد تتشابه ، وضاع الفرق بين القبح والجمال .

ستبدو لك الأشياء كأنما انتزعت من عالمها، واقتلعت من جذورها ، وفقدت عصارتها ، وأصبحت مصاصاً تشاهده كزائر متحف للنماذج المصنوعة تقليداً مكبراً أو مصغراً لما خلق الله .. الفرق بين الأشياء على حقيقتها وبينها عندك كالفرق بين رؤية السامع لفم محدثه وبين رؤية الأصم لهاتين الشفتين ذاتهما تتحركان كأنما يلعبهما زنبرك قد انفلت

عياره ، لا يستطيع أن يحكم : هل هو جد أم عبث ، وشقشقة لا تمت لآية لغة بصلة . لن تنفعك التجربة ، لأن عالمك ـ وأنت تراه بين بين ، يتغير دائماً ، والتجربة تتطلب ثباتاً . وأنت محروم حتى من الحدس والتخمين ، لأنك ترى قليلا .. وهذا القليل يفسد عليك هذا الملاذ الخادع . وإذا لم تدركك رحمة من الله وجدت نفسك فى الحياة تغرب حين تريد أن تشرق ، تسلم على الغرباء ، وتعرض عن الأصدقاء ، حتى يظن فيك أما الجحود أو الكبر ، وأما النسيان أو الغفلة ، تدق أبواباً لا تقصدها وتصعد أدواراً لتهبط منها إلى حيث كنت تريد ، تعطى البائع زائداً ، وتقبض منه ناقصاً ، وقد تقع فريسة لحب متيم الصبابة لدميمة من جيرانك .

ـ أنت تصف أصحابك أسوأ حالا من العميان .

ـ هـذا حق ، فالأعمى خلق عالمه وهو عنده واضح كل الوضوح معاييره . مستمدة من التجربة وهى ثابتة عنده ، وإذا أقدم على خطوة جديدة حسب لها حسابها ، أما أصحابنا فإن قبضتهم على عالم المرئيات باقية لهم ، ولـكنها قبضة متراخية ، تمسك ولا تمسك .. كالغربال المخروق ..

ـ ما علاقة ذلك كله بالقراءة ودائها ؟

ـ أن النفس جزء من العالم لا تستطيع أن تنفصل عنه ، العزلة قاتلة لهـا ، وهى أبداً متعطشة للمعرفة ، فلما أنبهم على أصحابنا عالمهم الذى يعيشون فيه سعوا إليه بوسيلة تؤدى بهم إلى معرفة هـــذا العالم

معرفة تامة ، واضحة كل الوضوح .. عن طريق الكلمة المكتوبة . فهم إذا لم يروا الشجرة تنبت فى الأرض ، رأوها مجسمة فى أحرف الشين والجيم ، والراء والتاء المربوطة .. هذه الأحرف قادرة على ملء الفجوات العاوية فى قلوبهم ، ولكن ويلى عليهم .. !

ـ لماذا تقول ذلك ؟ .. لقد حسبت أن القراءة قد أنقذتهم من الضياع ..

ـ نعم ، أنقذتهم من شيء اترميهم فى محنة أشد .. ألا ترى أن وسيلة معرفتهم هى شهادة السماع ، فلان عن فلان ، وهى شهادة مرفوضة فى المحاكم ، سيصبح كل واحد منهم كتاباً جافاً متحركا .. يسير على قدميه ، مغلفا بملابس .. ستحل الذاكرة عندهم محل البداهة : طعامهم حبات من الفيتامين ، أحكامهم قاطعة مقررة من قبل، لسانهم ليس ملكا لهم ، بل كأنما ركب فى جماجم كل السابقين ، ينطقون به من قبورهم ، فيخرج كلامهم كرجع الصدى ، نكتهم مكرره .. إذا فتحت صنبورهم سالت منه حكمة لزجة ، وفلسفة أسنة ، يحسبون أنهم يبيضون الدرر ، وإنما هو ريح فاسد يختلج فى بطونهم من فرط الإختزان .. إنهم يرون عالما واضحاً أمامهم كل الوضوح ، ولكنه عالم نزعت منه معاناة الحياة والتجربة المباشرة ، إنهم لم يفترسوا الكتب أكواماً ، بل أن هذه الكتب ذاتها هى التى افترستهم ، ونهشت لحومهم ، وقضقضت عظامهم ، ومصت دماءهم ، وأطبقت على أرواحهم تحجب عنها الهواء ، فلا ينبت فيها عود واحد أخضر ، إنها صحراء جرداء مترامية ، رمالها طحن حكمة

الأرض ومعارفها .. ، هم الأحياء والكتب الميتة معدن واحد ، كالخلايا المجنونة يأكل بعضها بعضاً . .

ـ لابد أن هناك عيباً ما فى هذا المنطق .

ـ لأنى نسيت أن أذكر لك أن القراءة تتحول عندهم سريعاً من وسيلة إلى غاية تتحقق بمجرد فتح كتاب ، أى كتاب . . كأنهم يطلبون نسيان مأزقهم بالإغماء فى بطون الكتب ، وسأضرب لك مثلا بواحد من أصحابى . .

ـ خيراً تفعل ، لتعود بنا إلى الحياة . .

ـ كان أبوه مصاباً بداء القراءة إذ أصيب فى طفولته برمد شديد ، ثم ترى أن هذه العلة تنتقل بالوراثة ! . .

يعود من العمل ، فيأكل وينام ، فإذا استيقظ واحتسى قهوته ، جلس على الكنبه ، كأنما يرقد فى قفة ، مكوراً . ورفع ساقاً فوق ركبة ساقه ، وأمال كتاباً قرب عينيه ، وما زالت رأسه تمشى من اليمين إلى اليسار ، وتقفز من اليسار إلى اليمين ، شفتاه جامدتان ، ولكنه ولا ريب ـ يقرأ بصوت مكتوم ، لأنه يعمد إلى تسليك حلقه ، بين آونة وأخرى ، بنحنحة عالية ، كما يفعل الخطباء والمقرئون . . حتى إذا حان موعد القهوة مع أصحابه هب واقفاً ولبس ثيابه وخرج . . لم يره قط يضع علامة على الصفحة التى أنتهى إليها ، ولعله كان يعيد ما قرأ من قبل . .

يقول صديقى أنه عاشر أباه عقدين أو ثلاثة ، فما رآه زاد علماً أو نجماً . . ولو وضعت الكتب التى رآه يقرأها ، واحداً فوق آخر ،

لجاوزت ناطحات السحاب ، وبلغ الأمر بهذا الأب إنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق . . !

ولا يزال يذكر كيف عاد لهم ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء ، فقد صدم عمود الترام ، وهو سائر يقرأ فى صحيفة . . ولم يدهش صديق فيما بعد من مناظر إصطدام القطارات وفعلها فى الحديد الغليظ كأنه عيدان كبريت . .

وانتقلت العلتان ، ضعف البصروالقراءة ، إلى أخيه الأكبر ، وزاد بلاؤه أنه دخل المدارس ، وتعلم الإنجليزية والفرنسية ، فأصبح يطارد ثلاثة أرانب بدلا من أرنب واحد . . يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر ، جديدها وقديمها ، كتبها فى أرفف أو مرصوصة على الأرض . . كيف لم تنخلع رقبته ؟ . . فهو أما مشرئب إلى رف مرتفع ، أو منحن فوق رصيف ، لا تراه إلا وتحت ابطه كتاب ، وفى جيبه كتاب ، وفى يده كتاب وسط لفة ضخمه من الصحف والمجلات . . هو يقرأ فى الطب وفن الطبيخ ، فى الفلسفة ، وأسرار غرام نجوم السينما ، فى المذاهب الدينية ، ومجلة حواء . . بل يقرأ مجلات الأطفال . . بلغ به الأمر أنه لايشرب من زجاجة إلا إذا قرأ على بطاقتها « حائزة على ميدالية الشرف الأولى فى معرض بروكسل سنة ۱۸۹۰ » - أبق تعال حاسبنى . . ! - ولا من علبة دخان إلا إذا علم أنها صنعت فى مصر ، ولكنها ملك لشركة (لامبرت وبطار) فى إنجلترا ، ولا فك لفة دواء إلا قرأ هذه الورقات الشفافة التى تحكى بعدة لغات أسرار المرض والعلاج - كل كلمة فيها من سطر ونصف - إذا دخل بيتاً لأول مرة نسى التقاليد ،

وترك مكانه وانجذب إلى حيث تكون كتب صاحب الدار يقلبها بدون إذنه .. لو كان لهذه الكتب روح لسكنت إليه ، وتطامنت كالهر ، وأنت تربت على رأسه ، فهو يلمس الكتاب لمسة الحبيب الرؤوف ، ويجيل كفه عليه ، ويحمله بيده ، كما يحمل الأب طفله ، ثم يتصفحه ، ويقلب أوراقه ، ويعيده إلى مكانه ، وفى قلبه غصة ، ولولا الملامة لاستعاره سراً ، ولا أقول سرقة .. !

ولكنك إذا تحدثت إليه ضعت فى عالم من الحطام ، وإذا ذكرت له أنك عاشق ، قال : هكذا كان شأن قيس ، وإن قلت إنك طلقت أجاب هكذا كان حال الفرزدق ، فينبغى لك من أجل أن يراك على حقيقتك ، أن تموت وتدفن ذكراك فى بطن كتاب ..

أما صاحبي آخر السلالة - وقد ورث العلتين - فقد نجاه الله من أن يكون ميتاً حياً ، إذ أعرض عن الكتب إلا قليلا ، وجعل همه متابعة علامات التطور ، وخصائص الأجيال ، وإختلاف العادات ، وخطو الزمن .. يقول أنه يجد كل ذلك فى لافتات المحال العامة ، والمتاجر والدكاكين ، فليس فى العاصمة لافتة لها دلالتها على شيء من هذا إلا كان خبرها عنده ، فهو يعلم أين تقع « مكتبة الوفد » ، وبقالة « مصر والسودان والملحقات وجغبوب » ، وطرابيشى الإستقلال ، ومطعم الثورة ، وقهوة « الوحدة العربية » .. يضحك من خطأ الترجمة ، فهذه الصيدلية التى تقع فى حى المدرسة الحربية سماها صاحبها « اجزخانة الحربية » ، وتحتها بالفرنسية « صيدلية الحرب ! » .. لعله يقصد أن الحرب خير مورد للعملاء ..

ويضحك أيضاً لمجمع اللغة العربية حين يمر أمام محال إصلاح السيارات ويجدها مستعدة « لتصليح كافة أنواع (الكاروسيروهات).. »

وهو الآن فى منتهى السعادة بعد أن عمت الكتابة بأنوار النيون ويقول أنها تذكره بطفولته حينما كان يشترى من بائع اللب شيئاً فى شكل القلم الرصاص ، فإذا أشعله من طرفه خرج منه سيل ملون يتراقص ويتلوى على الأرض ، اسمه « طباشير يطلع ثعابين » ، فكل اللافتات الجديدة هى عنده من هذا النوع .. فإذا انكسرت الحروف وانطفأ بعضها وبقى بعض ، أصبح « مطعم السمر » مطعم السم ، و « بائع الشربات » بائعاً للشر وحده فى أشهر الصيف .. وألبان السلطان ، ألبان السل ..

ـ كفى .. كفى ، فقد أضعت وقتى فى كلام فارغ ! ..

* * *

أطماع النفس

قمت نصف قومة ، وزحزحت مقعدى بقدمين متأدبتين ، متراجعاً من جوار المكتب إلى ركن الحجرة ، وأغضيت ببصرى ، أخلو إلى نفسى واتصبر إلى أن يفرغ السيد الجليل من همّ زائره المفاجىء المتعجل . . !

لم ير بأساً - والدنيا لا تزال بخير - من أن يقطع حديثنا جبراً بخاطر زميل قديم فى المدوسة ، سيقول فى سره : « أهملنى لأن الزمن قدمه وأخرنى » - ظننه قادماً عليه لكلمة ورد غطاها .

وانفلت من الباب رجل حسبته لتوه تلقى لكمة عنيفة رنت على عموده المنتسب إلى الفقر . . فظهره مقوس إلى الأمام ، ورقبته مائلة إلى جنب ، وكتف له أعلى من كتف ، كان أصفر الوجه ، زائغ البصر ، تتعثر خطاه فى قيد مرتعش ، ومد للسيد الجليل يداً لو وضعها على ورق نشاف لخلفت لها نسخة طبق الأصل ، ولما بدأ يتحدث رأيت لعابه قد جف إلى كرات بيض قليلة فى حجم رأس الدبوس ، تتناثر على لسانه ، وتلتصق بحافتى فمه ، قال وهو يسارقنى نظرة خاطفة بين الحين والحين :

- إنه جاء يستنجد بزميله القديم ، فليس له فى الدنيا بعد الله سواه ، أنه علم من مصدر موثوق به أنه سيرفت من عمله ، وأن اسمه قد أدرج

فى قائمة سوداء ، مع آناس آخرين ، كل ذلك نتيجة لدسائس لا يريد أن يضيع وقت الدولة فى سردها الآن ـ لها فرصة أخرى ، أنه متعجل فى أن يسرع صديقه العليم بخلقه ، وطبعه ، وماضيه فى انقاذه من ورطته ، من قبل أن يقع الفأس فى الرأس .

كان تهدج صوته قد خف قليلا ، ولكن الدموع الحائرة فى مقلتيه ترقرقت حينما أردف يقول بصوت الحكيم المستكين :

ـ كل مطمعى أن أبقى فى عملى ، إننى قانع به ، وقانع بمرتبى فهو يكفينى أنا وعيالى ، أقبل يدى ظهراً وبطناً ، فلا اسأل إلا الستر ، وأنت سيد من يشهد بأننى ما جريت قط وراء المادة ، وزخرف الدنيا ، إننى متوكل على الله وحده . . إجابه مطمئناً له :

ـ لا تهلك نفسك عبثاً ، ولا تجعل الأوهام تفترسك ، وأصدق فى توكلك على الله ، من حسن حظلك أن المسألة برمتها قد عرضت علىّ لإبداء الرأى ، وإنى اؤكد لك أن مصدرك الموثوق به هو مصدر غير موثوق به أبداً ، أنت بخير ، فانصرف إلى عملك واهنأ بحياتك وعيالك ولا تصغ إلى الاشاعات . .

أفرخ روعه إلا بقية كجذر الضرس بقى بعد الخلع ، وظل يتفحص وجه محدثه ، كأنما يريد أن يحلف له إيماناً مغلظة ، أو يكتب له تعهداً يمهره بإمضائه . .

وأدرك السيد المحنك أن المسألة قد انتهت . . ولكن الحديث سيطول ، فأطرق قليلا ، خيل إلىّ أننى استشف إبتسامة خفيفة تعابث فى حياء شفتيه ، وفتح درج مكتبه وأخرج ورقه مطوية ، ثم فتحها لنفسه هو وحده ، وقال للرجل :

ـ من حسن حظك يا سيدى أن القائمة السوداء هى عندى ، هـذه هى أمامك . . وهذه هى الأسماء أراجعها وأنت شاهد ، فلا أرى أسمك بينها ، هل اقتنعت . . ؟

شىء فى قلبى يؤكد لى أن هذه الورقة لاعلاقة لها بالموضوع ، ولـكن الرجل بدا عليه أمام هذا البرهان الملموس أنه آمن ، واطمأن وانخلع جذر الضرس ..

تبين للرجل أن السيد الجليل لم يبذل جهداً من أجله ، ما دام أن الإشاعة باطلة ، وإسمه لم يرد فى القائمة السوداء ، ومع ذلك رأيت صدره يتنفس ، معتزا بهذه الصداقة البريئة النادرة فى أيامنا هذه ، أنقذته من ورطةوإن تكن موهومة ، وسلم عليه سلاما جعله ينطق بالاعزاز والمحبة مثل نطقه بالإكبار والإجلال ، واندلقت عليه سعادة كغسل التطهر ، لعلها هى التى أنسته ما كان فيه منذ لحظة ، فما كاد يستدير ويبلغ الباب معتدل القامة حتى كر راجعاً محنى الظهر وقال ووجهه يطفح بابتسامة لم أر مثلها شيئاً جمع بين الاستجداء والمرح :

ـ إذن مادام الأمر كذلك ، فقد بقى لى من أملى فى كرمك ومودتك رجاء واحد هو آخر ما أتقدم به إليك بقية عمرى ، هذه هى فرصة لا أريد أن تفلت منى ، فقد لا يتاح لى وسط زحمة عملك أن ألقاك هذه الأيام مرة أخرى ، أن منصب مدير المصلحة شاغر منذ زمن ، وأنا أقدم موظفيها كما تعلم فمن حقى ألا يتخطانى من هو دونى ، إنها مسألة كرامة ثم أنت لاتخفى عليك شدة الأزمة ، وامرأتى تقرعنى صباح مساء بقولها . « متى تشترى لنا كبقية الناس ثلاجة ؟ » . .

تقليعة جديدة

سأقتصر على التسجيل لا النقد ، وعلى الوصف لا الإرشاد ، أريدك أن لا تلتزم ـ بل أن لا تقتنع ـ برأى لى ، إنما أغالب نفسى ـ لا أزعم لها المزاعم ـ فأعرضه عليك لا لشيء إلا أن أتيح لك المقارنة ، وهى مفضية إلى الاعتدال والتسامح ، وأن أكشف لك ـ مجانا ! ـ عن مزاج قد تراه شاذا ، ولكنه يعينك على فهم بقية الناس . .

هذا طبعى ، فما بالك إذا حشرت نفسى فى موضوع يصدق عليه المثل القائل « واحد شايل دقنه ، والثانى تعبان ليه ؟ » .

ـ قد لا أجنى منه إلا غضب نجوم لامعة فى مجتمعنا لها فى قلبى إعزاز وإكرام ، وأنا لا أحب أن أكون من أصحاب السحن الكئيبة التى تدخل على الفرح فتهده ، فشر الفتوات والعصبجية ! .

فى الراديو حديث بين مذيعة ومطرب مشهور ، مضى الكلام بينهما سهلا غير متكلف ، ثم جاء على طرف لسانها سؤال أوهمتنا أنها تلجلجت به ـ وهو معد من قبل ـ وسترت ترددها بضحكة ـ لأن الابتسامة لا تذاع علينا إلا فى التليفزيون ـ تمهد لنا بها أن تشارك فى فكاهة حلوة :

ـ عمرك كام سنة يا أستاذ ؟

شكرها فى سره (ستقول : وكيف عرفت أنت ذلك) أن أتاحت له أن يتضمن البرنامج دعابة مستحبة تلونه وتنفى الضجر فأجابها بسرعة تكذب حرجه المزعوم :

ـ وليه السؤال ده بقى ؟ لزومه إيه ؟!

واندلق الاثنان فى الضحك ، وكان المفروض أن يضحك السامعون أيضاً ، ولكنى لم أفعل ، بل أحسست بشيء من الضيق والتململ . فضبط الرجل المتعالى ، والهجوم عليه بسؤاله عن عمره ، وإظهاره الحرج ثم المراوغة ، ثم المبالغة فى العمر ، ثم الدخول معه فى مساومة يعتدل فيها شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى حد « يحرن » عنده ، ويأبى الانهزام أمام الإلحاح المتكرر عليه بأن لا يضحك على الدقون وأنه يقول الصدق ، ثم تمحكه بالمقارنة بينه وبين شخص ثان من الحاضرين ، يتجدد معه الجدل ذاته ـ فى صورة أبوخ ـ وتنقلب المبارزة الثنائية إلى لعبة جماعية مثل « حاورينى يا طيطا ..

يحدث كل هذا والناس يهمس بعضهم لبعض بحقيقة عمر البطل فهو معروف ـ جو زائف أتملل له ـ أصبحت هذه الصورة اليوم « مودة » أو « تقليعة » جديدة للفكاهة ، شاعت بين أوساطنا ، يبتسم لها السائل ، ويضحك المسئول قليلا ، ويقهقه الحاضرون . .

خرجت من المجالس الخاصة إلى المنتديات العامة ، أصبحت لبعض نجوم مجتمعنا بضاعتهم الأولى فى سوق خفة الدم والدعابة ، أحسبهم يستثيرون هذا السؤال فى كل حفل عمدا ، حتى أصبح لهم « لازمة » لا تزال تضحك الناس ، وهى متكررة ، وليس هذا شأن النكت ،

بل كأن الجمهور لا يعتبر الحفل قد تم وبهجتهم به قد كملت إلا إذا دار هذا الجدل العجيب ، قد يكون المطرب المشهور معذوراً « حبة » لأنه يرى ابتسام مجده متوقفاً على احتفاظه بكامل أسنانه ، ولكن بعض رجالاتنا زودوها « حبتين » فى إشاعتهم لهذا النوع من الهزل ، وقد تكون أصول الخطابة وضرورة التنقل فيها بين الجد والدعابة هى التى تدفعهم إلى هذا المنزلق ، ولكنى ماذا أقول فى رجال كثيرين من أهل العلم والفضل ، معروفين بالاتزان والتعقل ، يشغلون المناصب الرفيعة فى الدولة ؟ إنهم جعلوا هذا النوع من الهزل ديدنهم فى مجتمعاتهم الخاصة حتى فى حضرة النساء وبالأخص فى حضرة النساء . .

رأيت النساء يضحكن ملء الأفواه لهذه التقليعة الجديدة ، وألمح على وجوههن دلائل السعادة ، كأنما أزيح عن قلوبهن هم ثقيل ، وتبرق أعينهن النهمة بلذة الانتصار إذ هبط الرجال إلى مستواهن ، وإن كانت نظرة المرأة منهن تخفى شيئاً من الخجل والشعور بنقص فى قيمة زوجها حين تراه يشارك الآخرين فى هذا الهبوط . .

فإن الهلع من تقدم العمر كان من قبل احتكارا لغالبهن ، مفروضا عليهن ، يعرفن أنه دليل الضعف فى حياتهن ، فهن جميعاً عاجزات عن مغالبة قانون صارم وضعته الطبيعة بلا رحمة ، أنها رسمت بالقلم الأحمر خطاً عند مرحلة من عمرهن وقالت :

ـ هنا تلغى وظائفكن !

لا يعرف هذا القانون استثناء ولا يقبل شفاعة ، سواء لديه المرأة الباردة البليدة ، والمرأة المتأججة الخبيرة بفنون الحب ، سواء لديه المرأة

التى فقد ذهنها وقلبها قدرتهما على الاستيعاب والإعطاء ، والمرأة التى ينمو نهمها للحياة والحب كلما تقدمت فى العمر . ومتى ألغيت الوظيفة شعرت المرأة بأنها أحيلت على المعاش ، وأنها فى حساب الحياة كم مهمل ، وقد تصاب عند هذا الخط الأحمر باضطرابات عصبية شديدة .

هذا هو تفسير ولع المرأة بإخفاء عمرها ، وهلعها حين يتقدم بها إذا هلت على مجتمعها فتاة شابة تتفجر بالحياة ، تحس أن القادمة تركلها بقدمها : لتزيحها عن طريقها ، لقد رأيت نساء كثيرات ، متعلمات وغير متعلمات لا يستطعن حينئذ إخفاء نظرات الغيظ والحقد ، ويسلقن القادمة ، وكل طلائع جيلها ، بألسنة حداد ، والفتاة لا تجود لهن برثاء أو رحمة ، وقد يصل بها الوثوق بالنفس إلى حد التبجح ..

ليس فى حياة الرجال مثل هذا الخط الأحمر ، إنه مرسوم فى صحيفة كل منهم طبقاً لقدرته وفحولته وبقية أسرار تكوين جسده ونفسه ، فكلام الرجل عن عمره مخالف للطبيعة ، منقص لقدره ، من أجل هذا أضيق ذرعا بهذه التقليعة الجديدة وأراها خارجة عن نطاق الفكاهة أو هى - إن أصروا - فكاهة سمجة ..

قانون الضدين

لا أكف عن القول بأن أسلوبنا فى وصف الماديات والعواطف خاضع لقانون الضدين ، فهو مندفع إما إلى الأبيض وإما إلى الأسود ، لا وسط ولا ظلال ، مع أن الظلال ـ وهذا من المفارقات ـ هى التى تنير المعالم وتحدد شخصياتها .

وهذا ما نفعله أيضاً فى باب الحياء ، فالقياس عندنا أما عرى فمرفوض وأما حجاب فمقبول . هل تذكر تردد محاكمنا فترة غير قليلة فى الحكم على صور النساء العاريات بين البراءة والإدانة ـ وقد مالت أخيراً فيما يبدو ـ إلى الإدانة ، وقد أدين بائع كئوس شراب لأن زخرفها اتخذ صورة أجساد عارية للنساء ، هذا مع أن بعض الحجاب قد يكون أشد خدشاً للحياء من العرى .. أقول هذا لأننى أذكر فيلما مصريا صور لنا رجلا يعرض عن زوجته الشابة ، فرأيناها وهى فى ملابس تغطى جسدها تتلوى وحيدة فى فراشها ، ثم تقوم وتفتح الراديو فيذيع عليها ـ وليس هذا من قبيل الصدف ! ـ لحناً يصلح للرقص ، فرقصت أمام المرآة وتناولت الراديو بيدها ، ونزلت وهى ترقص على السلم حتى بلغت مكتب زوجها ورقصت أمامه ، وأخذت تستثيره ، وتحثه ، وتتوسل إليه أن يصعد معها لحجرة النوم . .

لا أذكر أنهما تبادلا قبله ، ولكنى لم أر مثل هذا المشهد فى خدشه

للحياء حتى فى الأجزاء المقطوعة من أفلام بريجيت باردو ، ولكن الفيلم عندنا مر دون إنتباه إليه لأن المسألة ما زالت « عرى .. أو حجاب » ..

إن دعوت إلى التشدد .. لخشيت أن يقال عنى إنى دقة قديمة ، وأن تمنيت أن ننتقل فى قياس الحياء من مرحلة « قانون الضدين » إلى مرحلة التنبه للظلال .. لخشيت أن يقال عنى إننى أباحى ثائر على تقاليد قومه ..

عذاب الإنتظار

العمارة العالية القائمة كالجزيرة وسط الميدان بها أكثر من عشرين طبيباً ، هى أشبه ـ ولا مؤاخذة ـ بسلخانة مودرن ، فى قسم « السقط » فرع للفشش ، وآخر للطحال والكبد والكلاوى ، وفرع للقلوب ، وآخر للمصار الدقيق والغليظ ، وقسم ثان يتلقى الجلد والشعر ، وثالث يتسلم العظام والكوارع ، ورابع يساق إليه الدم ، وخامس تكوم فيه الأنوف ، والآذان ، والحناجر . . حتى المخ له قسم خاص ، وأحدث الأقسام يستقل بأشياء تسميها السلخانة بالحلويات ، ويسميها أهل العمارة بالغدد . .

الخلاف الوحيد أن العماره تفتح أبوابها لكل الأعمار ، حتى ولو كانوا فى اللفة ، حتى قبل مجيئهم للدنيا ، أما السلخانة ـ ولعل رقابة الأفلام تشرف عليها أيضاً ـ فإنها توصد أبوابها عمن لم يبلغ سن الرشد ، رحمة به . .

ولكن المصيبة أن كل طبيب فى هذه العمارة له منافس يقيم بها أيضاً ، كأنما ضاقت به الدنيا ، فلم يجد غيرها ، أو كأن الريف غير موجود ، لا بأس أن يسكن فوق زميله أو تحته ، ولكن يحدث كثيراً أن يكون جاره الملاصق ، تتناطح اللافتات على الشرفات ، وعلى غرار

ما نشهده فى أحد أحياء القاهره : به مقلى يزدحم عليها الناس ، بجانبها مقلى ثانية ـ الجدار فى الجدار ـ لا يقربها زبون إلا كل حين ومين ، مع أن البضاعة واحدة ، فكذلك نجد التمورجى بالشقة اليمنى منهمكا فى عمله ، يوزع التذاكر ككمسارى الأتوبيس وسط الزحام الشديد ، وتمارجى الشقة الملاصقة قاعد على بابها ينش الذباب ، والأرزاق على الخلاق !

فأنت ترى أن هذه العمارة تغنيك عن اللف والدوران ، ادخلها وأنت مطمئن ، فأينما وقعت يدك تحنو على وجع فى جسدك ، وجدت من يصف لك الداء ويكتب الدواء ويضمن الشفاء .

وصلت عيادة الطبيب قبل صفار الشمس ، لم أنظر إلى ساعتى وأنا أقرأ مواعيد العيادة المكتوبة على اللافتة بجوار باب العمارة ، فقد دلتنى التجربة أن هذه المواعيد لا تصدق ، أصبح يأخذها الزباين بالويم لا بحسب قولها . هل كل شىء عندنا مائع عائم غير محدد ؟ على كل حال أظن أننى أعقل الناس حين رأيت من حسن الحيلة أن أصل للعيادة مبكراً ـ قبل الهنا بسنة ـ لأكون أول من يدخلها ، ومن ثم أول من يناديه الطبيب بجرسه ـ يخيل إلى أن رنينه معقم هو أيضاً ـ حين يتفضل ويشرفنا . متى ؟ علم ذلك عند ربى .

كان لابد لى أن أمر فى طريقى أولا على التمارجى الجالس أمام الباب ينش الذباب . أحسست أننى فى حاجة أن أمشى أمامه مشية المتسلل فقد اعتمد ذقنه على كفه ، وذراعه على ركبته ، وانحنى ظهره فسهل عليه أن تتبعنى نظرته منذ أن خرجت من باب المصعد ـ خير يا رب ! ـ

إلى أن انفلت إلى الباب المجاور واختبأت عن وجهه - طلعت أوت - أجبرتني هذه النظرة المخيفة أن ألتمس الأمن من قاطع الطريق فألقى عليه السلام بصوت خفيض ، ومرقت من أمامه فسمعته من وراء ظهرى يرد التحية من تحت الضرس ، غلافها الظاهر « وعليكم السلام » وباطنها المستتر «هذا هو مغفل آخر يجرى إثر أول ناعق وراء الشهرة الكذابة !» إنه لا شك يذكرنى ولعله يحصى أيضاً زبائن جاره ، فهذه ثانى مرة أجىء فيها للعيادة إذ قال لى الطبيب أول مرة « عد بعد أسبوعين » فشكرته فى سرى على قوله هذا ، إذ أحسست منه - وإن كان يكرره لكل الزبائن فى الغالب - أن مرضى ليس خطيراً كما أتوهم ، وأن عزرائيل لا يترصد لى بين عشية وضحاها ، ألم يضمن لى امتداد أجلى أسبوعين ؟ الموت لا المرض هو الذى يهمنى ، تمنيت أنه لو قال لى كل مرة - وطبعاً سيفعل ! - « عد بعد أسبوعين » فلا نفترق إلا على ميعاد مؤكد ، وهكذا أشترى العمر بالتقسيط ، كـكل ما نشتريه هذه الأيام .

لم أتجاوز باب العيادة حتى تبين لى أن أعقل الناس هو أخيبهم ، فقد وجدت الحجرة المخصصة للرجال مكتظة بالزبائن ، ليس فيها محل لقادم جديد ، رغم كثرة مقاعدها الشاغرة ، فالواقفون فى الشرفة أو أمام النوافذ بين عيونهم ، وهذه المقاعد زغرة تفزز عنها المغتصب ولو كان بطلا فى الصفاقة ، ودلتنى الضجة المنبعثة من حجرة السيدات أنها هى الأخرى كومبليه ، جلست فى ركن كنبه من القش فى الصالة لا بأس أن تجىء جلستى أمام نافذة عريضة مفتوحة على منور ضيق ، يخيل إليك من المواسير الصفر القبيحة المتطفلة على جدرانه أنه مصاب بتصلب

فى الشرايين ، على كل حال أكد لى التمارجى حين رأى تململى أن هذه واجهة بحرية ، وأنها ملقف هوا من اللى يحبه قلبك ، بعد قليل كنت أفك رباط رقبتى .

تمتد نظرتى عبر الباب المفتوح فتبصر باب عيادة طبيب الأطفال ، فكأنى أشهد توافد عازفى الأوركسترا على المسرح يحملون آلاتهم ويجربونها قبل وصول المايسترو .

ارتدت نظرتى للشقة فثبتت على لافتة عجيبة مكتوبة بخط جميل وبحبر شديد السواد يكاد يخرق العين :

كشف عادى	١٠٠ قرش
« « مستعجل	٢٠٠ «
« خصوصى	٣٠٠ «
« « مستعجل	٤٠٠ «
عيادة خارجية	٥٠٠ «

« يدفع الكشف للتمورجى قبل الدخول »

والظاهر أن المساحة المكشوفة فى الجدار انتهت قبل أن تنتهى اللافتة وإلا لأضافت تعريفة العيادة الخارجية ما بين عادى وخصوصى ومستعجل ، وفى قلب العاصمة وفى الضواحى ، الظاهر أن هذه مسائل تحتاج إلى مفاوضات خاصة .

فرغ تجوال نظرتى فيما حولى فمددت يدى إلى المجلات القليلة المتناثرة فوق المنضدة أمامى ،أغلبها بلا غلاف ، إن جميع مجلات غرف الانتظار عند الأطباء من نوع واحد ، ولها رائحة واحدة لا شك أنهم يشترونها

من سور الأزبكية بالجملة لا بالقطاعي ، كلها قديمة ، على الأقل مضى عليها سنة ، ومع أنني أذكر أنني قرأت العدد الذى تناولته ، أعترف أنني قرأت العـدد الذى تناولته ، أعترف أنني أقبلت أتصفحه بمتعة ، فالتطلع إلى الماضي يصيبك بخذر لذيذ ، كالخمر ، هـذه الممثلة الشابة التى أراها اليوم على الشاشة كالفواحش ، جسم مفشول ، ولغـد متهدل ، وعينان جامدتان كعيني السمك المنتن ، ووجه غليظ من لحم فاسد يئن من السهر والخمر ، أجدها تتطلع إلى فى المجلة القـديمة وهى جديدة فى الـكار ، فتاة رشيقة حيـة تتألق برونق الصبا ولمعانه ويقفز من نظرتها ذكاء وحب للمعابثة ، سبحان مغير الأحوال ، كنت أعرفها قبـل احترافها التمثيل وهى مخطوبة ثم زوجة معلقة بذراع فتى يماثلها رونقاً وبراءة ، لا يكف عن الابتسام بحيـاء ، يقال إنه هو الذى غرر بها ودفعها إلى مزالق التهتك فى الحـلال ، ثم هجرها فسهل عليها الانتقال إلى التهتك فى الحرام ، إنه لا يزال إلى اليوم يبتسم بحيـاء ، ولـكنى أصبحت حـين أراه أتقزز من ابتسامته وأحسبها قناعاً يستر فسادا أشد من فسادها .

أمسكت بتلابيب التمارجى وهو يمر أمامى :

ـ متى يجيء الدكتور ؟

ـ حالا . فى السكة . . خمس دقايق بس . .

دبت الحيـاة فى الشقة المقابلة ، الأوكسترا يعزف بشدة ، يعلوه صوت التمارجى ـ كأنه منادفى بيع بالمزاد .

ـ نمرة واحد .. نمره واحد ..

دخل علينا زبائن جدد ، لفظتهم هم أيضاً حجرة الإنتظار ، فجلسوا بجانبي .. وانحشرت ، ففككت الجاكته بعد أن زررتها وفككتها أكثر من مرة وداخت على رأسي ، لاشك أن وجهي أصفر وامتقع فقال علىّ التمارجي .. حين رأى حالتي ، وهو يمر أمامي ينطق طمع البقشيش من فمه :

- عاوز أجيبلك فنجان قهوة ..

فكدت أرفع عيني أولا للافته المعهودة .. لأعرف تسعيرة القهوة والشاي ، والكوكا ، عادي ، وخصوصي ، ومستعجل .. ولكني خيبت ظنه وسألته :

- متى يجيء الدكتور .. ؟

- حالا .. فى السكة ، خمس دقائق بس ..

هل هو قادم من آخر الأرض مشياً على قدمين .. أم حبوا على أربع إني أعرف أن لديه سيارة ..

قليت المجلات مرة أخرى ، أتنازعها أنا وجيراني ، لا يهفو قلبي إلا للعدد الذي طار مني ، ثم قمت ودخلت حجرة الرجال - طبعاً - وزاحمت الواقفين بالبلكونة ، إن الليل قد تقدم ، وأخذت أطل على الشارع ، الدنيا بانت فى عيني .. يا أخي حلوة ، الأنوار الخافته التي كان ينقبض لها قلبي .. (هل إنارة شوارعنا بنور كاف أصبحت مشكلة مستعصية على الحل .. ؟) .. بدت لى حانية لذيذة ، وضجة السيارات ، والترام التي كانت ترهق أعصابي ، وتجعلني أقفز وأشوح

بيدى إذا دهمنى كلاكسون .. وصلت لأذنى كهمس حبيب رغم أن منظر الترام من فوق لا يقل دمامة عن منظره من تحت ، دنيا حلوة ولكنها قاسية فى وقت واحد ، فليس فى هذا الشارع مخلوق واحد يهمه أن يعرف همنا نحن المحبوسين ، كل واحد ماشى فى حاله ، يتركنا نحن نطق ونفرقع ، كم تمنيت أن يرفع إنسان واحد - واحد فقط - نظره إلى ولكن أحداً لم يفعل .. فعدت إلى مكانى .. أحاول بحركة مؤدبة أن أزحزح جارى ، وأفوز بحيز أوسع ، فإذا به هو يحشرنى فى ركن أضيق لم تكن مبارزة بالسيوف .. بل بشىء آخر أخجل أن أخبرك به ، ووضعت يدى على خدى ، وجلست انتظر . .

صوت المنادى فى الشقة المقابلة يلعلع :

- نمرة ثمانية .. نمرة ثمانية ..

ما أشق الإنتظار ، لو قال لى إنسان . . سأقدم لك مجموعة من المجلات القديمة ، التى تحبها لتقرأها وأنت جالس .. لا وأنت واقف كعهدى بك تتصفحها أونطة أمام سور الأزبكية ، لامضيت الساعات امزمز بها وأنا سعيد ، ولكن الإنتظار جعلنى أقلبها كالمحموم .. لا أفهم كلمة واحدة .. حتى أصبحت أكرهها . .

لا تسألنى ماذا حدث بعد ذلك ، خرجت من العيادة . . والليل يكاد ينتصف ، الطريق هذه المرة مأمون ، لا شك أن التمارجى المجاور قد تعب من نش الذباب ، وأغلق الدكان على صوت المؤذن لصلاة العشاء ، الكونشرتو فى الشقة المقابلة ، هبط إلى عزف كمان رفيع منفرد ،

أن أردت أن تعرف هل هو من مقام . . دو كبير . . أو فا صغير ، فاستمع إلى تقديم ، وشرح ، وتحليل فى البرنامج الثانى . . وأبق قابلنى ، ونزلت على السلم . . وفى يدى تذكرة بدواء . . لن أجده فى صيدلية ، وصوت تمارجى طبيب الأطفال مبحوح . . وهو يرن رغم خفوته لخلو الشقة .. !

ـ نمرة ٣٥ . . ١ . . نمرة ٣٥ . . ١ . .

صور من الجدعنة

أغلب الناس من همهم أن يجعلوا من الحبة قبة ، أما صديق الهمام فمن مزاجه أن يجعل من القبة حبة ، لم أدهش حين مال على ذات يوم .. يقول :

- منذ الصغر . . وأنا مغرم ، إذا ركبت الترام أن أقف بجانب السائق . . ولا يزال هذا طبعى إلى اليوم ، وإن أصبحت شيخاً يزرى به مثل هذا الهوس الصبيانى ، وحين ذهبت لبرلين - قبل الحرب - ركبت أول ترام صادفنى ، لا لأذهب لمكان ، بل لمجرد التلذذ بوقوفى إلى جانب السائق ، فماذا رأيت . . ؟ . . رجلا ضخماً واقفاً كأنه عمود مصبوب ، لا يفزعه شيء أقل من إنفجار قنبلة ، وجهه إلى الطريق ، لم يلتفت مرة واحدة لليمين أو لليسار . . أصبح عالمه محصوراً بين قضيبين ، لم يفتح فمه قط ، لعله أخرس ، لا يحرك مفاتيحه إلا للضرورة وبالقدر اللازم ، وفى اللحظة المناسبه ، فلا تتكرر له حركة مرتين ، لا أدرى هل هو جزء من الآلة . . أم الآلة إمتداد لشخصه ، يسير الترام رغم ثقل هذا السائق . . كأنه يمشى على حرير لا على حديد ، وسرح ذهنى إلى سائق الترام عندنا . . حين عرفته وأنا صبى . . أى منذ أربعين سنة ، هو لا يكف عن التلفت يمنة ويسرة .. إذا وقعت نظرته على

ملاية لف غازلها بتحية طائرة ، وهو يلعب لها حاجبيه ، لا يجد بأساً أن يستمر الحديث بينه وبين الكمسارى . . ولو كان واقفاً على السلم فى آخر الترام ، أو أن يدخل فى مناقشة طويلة عن القدر مع الركاب خلفه ، لا تركب امرأة إلا سب الزمان ، ونسب فساده إلى صرمحة النساء ، لماذا لايشكمهن الرجال ، إذا سمع مماحكة راكب للكمسارى . . أوقف الترام من فوره ، ونزل بمفاتيحه ليشترك فى المعركة ، يدير مفتاح الفرملة . . من اليمين إلى اليسار . . مزهوا بفتوته ليربط الترام عند المحطات قبلها أو بعدها قليلا . . ولكنه يحب أن يلهو بهذا المفتاح ، فإذا أطلقه من عقاله ودار دورته الجنونية . . تلفت إلى مبتسما ، كأنه يقول : « ارأيت كيف استطعت أن تتفادى صدرى ، قبضته مع أنها كادت تلمسه ؟ » .. ثم يظل يديره على الفارغ من اليسار إلى اليمين ، تشجيه تكتكته المتتالية الرتيبة .. كأنه لعبة على هيئة طاحونه زنانة يلهو بها طفل ، مفتاح الكهرباء أمامه فى أمان الله فلابد له أن يعيده بلا سبب ، إلى نقطة الصفر ، ثم يدفعه فى حركة سريعة تكاد تخلعه إلى مكانه الأول ، من فرط إعجابه بفنه ، حتى الجرس فإنه يدق عليه والطريق خال ، لحناً بديعاً على الوحدة ، كأنه بائع عرقسوس . . ! . . لا عجب أن رقص الترام . وحسبنا أنه لا يسير على حديد ، بل على زلط ، معالجة هذا السائق لمفاتيحه هى حركات يدين تحاولان القبض على دجاجة هاربة ، وكما تحس أنه لا يفهم الآلة . . ولا يألفها ، تحس أن الآلة لا تفهمه ، ولا تألفه مع أن الوحش الضارى يألف حارسه بل يخيل إليك فى بعض الأحيان إذا طق الهاوس مثلا أن بينهما عداوة

شديدة ، ثم نقف . . فإذا بنا أمام قهوة بلدى يطلب منها شاياً ، ونقف مرة أخرى أمام دكان يشترى منه رغيفاً محشوا بالطعمية ، يسوق ويأكل ويشرب . . ويدير المفاتيح للعمل وللهو ، ويتناقش ويغازل . .

لو سألته . . كيف استطاع أن يفعل كل هذا فى وقت واحد . . أجابك : دى جدعنة . . !

وللكمسارى أيضاً فى ذلك العهد جدعنه . . من نوع آخر ، فقد أعطته الشركة زمارة لينفخ فيها ما يكفى لإيذان السائق بالمسير ، أو يولول بها إذا وقع خطر .. ولكنه جعل من زمارته آلة موسيقية ، فهو ينفخ فيها بلحن متموج مهزار . .

كان لكل كمسارى فى صباى لحن مميز .. كبرامج الراديو ، أما الباعة الحفاة .. فإنهم ينزلون من الترام وهو منطاق فى أقصى سرعته ، وظهورهم لا وجوههم إلى الطريق ، ومع ذلك لا يقعون ، ياالخيبة قوانين الطبيعة التى تعلمناها فى المدرسة .. ! ، فهذه هى أيضاً جدعنة ، كان الترام عندنا معرضاً متنقلا للجدعنة . . وسيركا جوالا . . !

وحين تسير المصاحبة بين العامل والآلة جنباً إلى جنب يتم الإعتدال ولكننا نظل بعيدين عنه إذا بقى العامل متأخراً . . ولو خطوة ، والذين يضيقون ذرعا أحياناً بتعثر الصناعة عندنا فى مراحلها الأولى . . خليق بهم ألا ينسوا هذا ، فجهود الإنشاء من العدم ، وفترات الإنتقال لا تخلو من أمثال هذه المتاعب ، ولكن أخطر شىء يؤخر العامل عن مسايرة الآلة . . هو ميله إلى الجدعنة ، كم أتمنى أن تعلق مصانعنا جميعاً لافتة بخط كبير . . تقول على غرار ما كان يكتب على جدران القاهرة

بالحبر الأبيض .. أو بالهباب الأسود : « ممنوع الجدعنة بأمر الحكومة ، ومن يفعل يعاقب بمثله » ..

وأضرب لك أمثلة أخرى : الساعاتى الذى يضع فى ساعتك المخروبة ترساً ليس من ماركتها ، وتمشى ثم تعرج لتقف لا يعد عمله غشاً بل جدعنة .. وأغلب العمال الذين استدعيهم لإصلاح ما فسد فى دارى من آلات أو أثاث .. مصابون بهذه العلة ذاتها ..

والمخترع الذى يشكو لطوب الأرض من أن الدولة لا تساعده ، ثم يتبين أن إختراعه معروف فى أوربا منذ زمن ، لا يعترف بأنه غافل ومقصر فى الإطلاع والبحث ، بل يعتبر عمله جدعنة .. ومصنع الأدوية الذى يخرج للناس دواء لم يتم نضجه لا يسلم بأنه مستهتر ، بل يباهى بجدعنته .. والموظف الذى يعمل فى أرشيف مرتب كدكان العطار فى صباى حين يعثر على الملف المطلوب .. لا يتألم للفوضى بقدر ما يفرح لجدعنته ، ولن ينصلح حال الأرشيف قبل أن يكف هذا الموظف عن الإعتذار بهذه الجدعنة ..

التحدث عن النفس !

أريد أن أشكو إليك ظاهرة لا أملك معها سوى الاستسلام وأوطن نفسي - من قبل - على بلائها المرتقب .

يحدث كثيراً في الوسط الذي أعيش فيه أنني لا أبدأ مع إنسان كلاماً عن الجو أو السياسة أو السينما أو الإشاعات إلا وجدته بعد جملة واحدة أو اثنتين على الأكثر ينتقل بلا مقدمات إلى التحدث عن النفس ، والإشارة بالجهد الذي يبذله - وهو غير مقدر - والآراء القيمة التي أبداها فكان نصيبها أن أهملت أو نسب فضلها إلى غيره ، وعن قدرته على إصلاح كل اعوجاج لو أتيحت له الفرصة ، فإن الداء عنده بين ، والعلاج أبين ، فيهم - وهم قلة - من لا يجاوز هذا الحد ، وفيهم - هم كثرة - من يستطرد إلى الشكوى من سوء الحظ ، وهو لا يطلب منك مساعدة حتى ولا نصحاً ، بل همه الأوحد أن يثبت لك وجوده - وأنت تراه رأى العين فهو لا يلبس طاقية الإخفاء ، أو كأنما يبرىء نفسه من تهمة لم يوجهها إليه أحد .

ألف الناس مثل هذه الأحاديث ، وأصبحوا يستخفون بها مرة وبقائلها مرتين ، ويفضى بهم الاستخفاف إلى التندر بصاحبها بمجرد أن يولى ظهره لهم أو السخرية منه . والغريب أن هذا المتندر أو الساخر

سيقصد بعد ذلك من فوره شخصاً آخر يصب فى مسامعه مثل هذا القول عن نفسه .

يتجه ذهنى إبان هذه الأحاديث إلى أناس يرقون بخطى ثابتة سلم النجاح بفضل عمل دائب صامت ، ووثوق بالنفس وإيمان بالله .

ثم إنى أجد هذا الكلام يصيبنى بإعياء شديد ، أحسبه ينتقل إلىّ بالعدوى من مخاطبى ، وبدل أن نتجاذب أطراف الحديث نصبح نتبادل رمى الأعباء كل منا على عاتق الآخر ، ولكنى أوهم نفسى أنى أؤدى خدمة كبيرة للقضاء على هذا العبث المتفشى حين أكلف أعصابى الصبر وأذنى حسن الاستماع آملا أن يفرغ المتحدث جعبته ويستريح منها فلا يجد ما يصبه من جديد ، ومع ذلك فإن مجهودى غير مقدر . .

أرأيت أنى بدأت أنا أيضا بالشكوى وانتهيت بالتحدث عن النفس والإشادة بالجهد ؟..

فى الأتوبيس :

لا ألقى المسئولية على عاتق مؤسسة النقل العام ، كان الله فى عونها ، ولا على كومسارى الأتوبيس ، وهو يحتك بى ـ علاوة على بقية الركاب ـ أكثر من خمسين مرة فى مشوار واحد ، ونصفها بصدرى ، ونصفها بظهرى ، فأظل وأنا واقف فى الممر أدور كسخص المقاتة ، لا أقيد عليه عدد « الفاول » الذى يصيب أقدامى من حذائه ، إننى أغفر له كل هذا ، بل أراه سيدخل الجنة بلا حساب على رأس موكب لا وسط الزحام .

ولكنى لا أغفر له أنه لا يحلو له النفخ فى صفارته بقوة جبارة تكاد تمزق شدقيه إلا فوق أذنى ، وقعها على وقع « النوك أوت » على الملاكم ، وأنا ـ علم الله ـ رجل مسالم ، إنما المسئول هو رجل اعترف بأنه نحيل ، فأنا لا أحب المبالغة ، ولو كانت صنعة الكلام تقتضيها ، يلبس أبيض فى أبيض ، كأنه على جبل عرفات بدليل اختفائه يوم الوقفة وبقية أيام العيد أو كأنه إعلان عن صابون يزيد الغسيل بياضا ، تكاد يدى حين أراه تهم من تلقاء ذاتها بإخراج نظارة الشمس من جيبى ووضعها على عينى ، هذا الرجل لا يتورع ـ يا لبجاحته ! ـ عن أن يدس نفسه وسط الزحام الشديد ليبيع هو الآخر تذاكر لا يختلف ثمنها فى سكوندو عن بريمو يزعم ـ والعهدة على الراوى ـ أن ثمنها تبرع

كريم منا فى بناء مسجد بالجيزة . لاحظ أننا ركاب أتوبيس مصر الجديدة . لعله يبيع فى أتوبيس الجيزة تذاكر لبناء مسجد فى مصر الجديدة . ألم يكن الأولى به - إن كان صادقاً - أن يبدأ البيع لركاب أتوبيس الجيزة ؟ لم أشتر تذكرة واحدة ، فإن الفار يلعب فى عبي ، ومع ذلك أحس حين أرفض ويشيح عنى بوجهه محوقلا ومحسبلا إننى - عنى خلاف الكمسارى - سيقذف بى فى جهنم قذفاً، كم من مرة وطدت فيها العزم - للخروج من هذه الحيرة - أن أذهب للجيزة لأبحث عن هذا المسجد ، ولكننى عجزت ، أشعر بقيد خفى يسمر قدمى ويشل إرادتى ، لاشك أن لهذا الرجل قوة مغناطيسية ينومنى بها . هذا الرجل النحيف الذى لاأزدريه هو المسئول عن سخطى على زحام الأوتوبيسات ، والقشة الزائدة قد تقصم ظهر البعير ، ولعل السبب فى تولد السخط أن هذا الرجل يزحمنا دون أن يدفع مليما ، وكيف يشترى تذكرة وهو يبيع تذاكر ؟ حال الكمسارى معه كمن يبيع الماء فى حارة السقايين .

إن مشكلة زحام الأتوبيس باقية بدون حل ، توشك أن تكون مستعصية كأنما كلما قذفوا فى القاهرة بعدد من الأوتوبيسات زاد عدد سكانها فوراً ، أيكون هذا الزحام هو المؤدى إلى تعارف يصل إلى حد الخبرة فلا عجب أن انتهت بخطبة وزواج ؟ حتى قد يكون من الآراء الصائبة أن خير وسيلة لضبط النسل هو منع الأوتوبيسات . .

عاد المثل القديم « السفر قطعة من العذاب » إلى سابق صدقه بعد أن أبطلته سيارات وطائرات تأكل وترقد وتدخن وتنام فيها كأنك فى

بيتك ـ فأنت ترى أنني أفترض أن بيتك مريح ! ـ وأشد من عذاب السفر عذاب الانتظار على محطات الأوتوبيس ، قد تعلمنا الاستجداء بالإشارة باليد المسترحمة والنظرة المستعطفة إلى السائق أن يشفق بنا ويقف ، وتعلمنا المكر وقراءة الأفكار ومقارنة الاحتمالات : هل يقف عند المحطة ؟ أم قبلها ؟ أم بعدها ، وينقسم المنتظرون إلى محافظين يجدون أن الدنيا ستخرب إذا مالوا عن المحطة ولو قليلا ، وإلى أحرار يسايرون التطور فيختارون مكانهم بعد المحطة ، وقبلها كأنهم فى كل مرة يتراهنون ، ثم يكذب السائق ظننا جميعاً وينطلق كالسهم وهو يلعب لنا حاجبيه متلذذاً من المقلب الذى شربناه . نتجمع كلنا من جديد عند المحطة كأننا على جسر التنهدات . . يطلب أحدنا من الآخر ـ من غير سابق معرفة ـ أن يتطوع بشكوى السائق إلى الشركة ، وقد لاحظت أن هذا الرجاء يغضب من يوجه إليه ، إذ يرى فيه استقلالا له ، أما إذا وقف السائق عند المحطة أو قبلها رأيت الذى ينتظره بعد المحطة يجرى إليه ، كالريح الخاطف ، لا ليلحق الأتوبيس ، بل لئلا يكذب حدسه ، كل هذا ورتل من التاكسيات الفارغة تمر أمامنا بتمهل شديد واحداً بعد آخر ، كأنها كلاب متشممة تبحث عن قنيصة .. ولعلها لا تفقد الأمل فتبتعد ، ثم تدور لتعود من جديد ، والغريب أن صوت محرك المرسيدس له من بينها جميعاً قدرة عجيبة على ترجمة غيظنا أو على إثارته ، لست أدرى ..

تركة ورثناها

هى تركة ورثناها ، أجد فيها تفسيراً لطبائع بعض رجالنا ..

الشعر العربى - حتى فى أقدم عصوره - مزدحم بأبيات لرجال يتفجعون للشيب لا لشىء إلا أنه سبب هجر النساء لهم .. وفى عصور الإنحلال - وكانت قد طالت على أمتنا - أصبح الكلام عن بياض المشيب، وسواد الحظ .. وصدور الغانيات .. وخضاب شعر الرجل لتاً وعجناً .. يتكرران فى شعر سخيف يماشى هذا الذوق الرفيع فى زخارفه الفارغة من سجع ، وجناس ، ومطابقة ، كأنما الشيب ، وصدور الغوانى .. هو الهم الأوحد ، لا تحوى الدنيا هما سواه . .

إننى اقرأ هذا الشعر بتململ شديد - لا تحسبنى أقضى العمر كله فى التململ .. ! - ولا أجد له مثيلا فى آداب بقية الأمم فيما أعرف واحار فى تفسير ظاهرة إنفراد الشعر العربى بهذا العبث السخيف ..

أقول هذا .. وأنا لا أزال أذكر فى شارع محمد على .. وشارع عبد العزيز .. حوانيت أغلب أصحابها - ولا أدرى لماذا - من الأرض ، تجاور دكاكين البسطرمة ، والسجق .. تبيع صبغة شعر للرجال .. على باب أحدها صورة لا تزال عالقة بذهنى . . لرجل له لحية عجيبة ، نصفها الأيمن أبيض كالثلج .. ونصفها الأيسر أسود كالفحم دلالة على

جودة البضاعة عند الاستعمال ـ وكانت الصحف تنشر إعلاناتهم الكثيرة عن الصبغة العجيبة ، بل أن بعض شيوخ كبار ساستنا فى العهد الماضى ، فى حرصهم على بقاء مجد سمعتهم فى ساحة الحب . . يصبغون رؤوسهم بلون أسود فاحم يترك بقعة على قفاهم ، وكنت حين أراهم هكذا أتمنى أن يترفع الرجال الكبار عن هذا العبث الصغير ..

أختفت دكاكين الصبغة ، وشهادتى مقبولة لأننى الآن عدت إلى شارع محمد على ، أقطعه سيراً على الأقدام مرتين فى اليوم ، وتحول الطبع والحمد لله ..

أن أردت دليلا .. فأنظر إلى فودى رجل شاب قبل الأوان ، من بذل الجهد ، وحمل العبء . . والسهر المتواصل لدفع عجلة أمته إلى الأمام ، سترى الشيب فى فوديه . . عزما ، وفتوة ، وإشراقاً يجذب القلوب . .

أين تسهر هذا المساء ؟

الناس أمام باب السينما كالنمل ، لهم غاية ، ولكنهم قبل بلوغها قد تمزق بين عزم واضطراب ، وتجمع وتفرق ، واصطفاف وتشابك تلفظ الدار إلى الباب حشداً كثيفاً ، فيهم الذين ينتظرون الوفاء بمواعيد مؤكدة ، وجوههم إلى بائعى اللب والسودانى والسميط ، ونظراتهم لها رشاش يتطاير فوق الرؤوس ، وفيهم من جمد اليأس فى مكانه ، ألصق ظهره بالجدار وسرح ذهنه ، لو هششته لما طرفت عينه ، سيكون اللقاء عنده فرحة وحفنة ، تتوالى السيارات الملاكى ، أغلب ركابها سيدات لهن سيقان من السلوليت غلاظ كقوائم مناضد البلياردو ، مندفسة فى جوارب أصبحت كالزكائب ، تنتشر وراءهن ـ كزهر الطاولة ـ حفنة من فتيات مراهقات ـ لا أدرى أى الجيلين يسوق الآخر ـ اصطنعت كل فتاة منهن لنفسها مشية وتسريحة ولمعة عين ومسكة لحقيبة اليد ، على وجوههن قناع من الخفر ، تزعم النظرة التى ترى كل شىء أنها لا ترى شيئا . والقادمون بالتاكسى يفتحون الباب بيد تقبض على النقود ، فيكون نصيبهم اللخمة لا التشهيل .

من بين القادمين أناس متلهفون كأنهم سهم منطلق ، يشقون الجموع بكف كالسكين تحسبهم لو ضاعت منهم « فتفوتة » من البرنامج لفقدوا نصف عمرهم ، وبعضهم يقدمون متثاقلين كالمخدرين ، يسيرون على مهل وفى دوائر ، هذا هو الصنف الذى يذهب إلى السينما لا لشىء إلا أن يتمتع بتعسيلة حلوة ، لن تعرف هل له شخير أم لا إلا إذا جلس بجانبك أو وراءك ، وشبان يفتلون من ضحك مفتعل وترآ زناناً هايفاً يعزفون عليه طول السهرة ، أما العاقل المجرب فهو مخلوق يتميز بصمته وانطوائه ، لا يلقى بالا إلى هذه الجموع الغافلة التى تمشى وراء أول ناعق مشى الأغنام ؛ إنما همه أن يستعرض الصور المعلقة عن يمين ويسار ، يتأملها باستغراق شديد ، يكاد أنفه ينفرطح على الزجاج ، إنه نقاد جواهر يعرف الزائف من الحر ، لا ينقصه إلا أن يستعين بهذا المنظار المكبر الصغير كالكستبان الذى يقبض عليه محجر عين الساعاتى قبض كماشة ، يخيل أحياناً أن الصور هى التى تحدق فى هذا المخلوق العجيب ، إنه يريد أن يعرف قبل أن يدفع هل هو فيلم رعاة بقر تغيم فيه الشاشة من كثرة دخان المسدسات وتكنس فيه الجثث كنس القمامة ، أم هو فيلم بملابس تاريخية وقبعات مزينة بالريش ، الشوارب المستعارة توزع فيه على الممثلين بالمجان ، والرقص رقص أكابر ، أم هل هو فيلم بوليسى تستمر فيه المطاردة من أسطح العمارات إلى أنفاق المجارى ؟ أهو فيلم رعب تشيب له الركب ولا يبقى فيه مع الحذف رثاء لهذه الممثلة التى جحظت عيناها وتفرت عروق رقبتها حين تقع عليها مخالب الوحش

فتصرخ صرخة تشرخ قبل حلقها أقوى « ميكروفون » فما بالك بطبلة آذاننا ؟ وإذا كان الفيلم قصة غرام فهل الممثلة فى أوضاع محتشمة أم مبتذلة ؟ والقبلة هل هى إلتصاق بين الأجساد وقوفاً مع الشب على أصابع الأرجل أم رقودا ، جنباً لجنب أم فوق وتحت ، وهل هذه القبلة على الأرائك أم على رمال الشواطىء أم على العشب أم على كوم تبن فى جرن ؟ - والظاهر أن هذه الأخيرة هى عند صاحبنا ألذ القبلات ! - أتمنى أن أعرف كم مرة خاب فيها حدسه وكم مرة أصاب ، فبعض هذه الصور هى لمناظر حذفتها الرقابة لحسن الحظ ، ليس بدعا استحقاق هذه الدور لنعتها المشهور « سيما أونطه » . .

وهناك أناس آخرون مرضى النفوس يأتون للسينما للتحكك أو طلبا لخلوة فى الظلام تتعرى فيها عاهتم العاجزة وتتنفس ، ويستمدون من الشاشة ومن حولهم سياطا تجلد شهوتهم الدميمة .

ها نحن نتقدم شبرا شبرا إلى شباك التذاكر ، لو كان للطابور لشراء خبز لانصرف بعضنا من شدة الزهق لايبالى بجوعه ، أنباء فراغ اللوحة أو امتلائها تتنقل بيننا كالاشاعة لا نعرف مصدرها ، ولكنها تسيطر علينا ، وإن كنا فى قرارة أنفسنا لا نصدقها حتى نرى الصلبان الزرق بأعيننا . . يطوف بنا أناس هم وسط بين الجواسيس والشحاذين ، لهم فراسة عجيبة تصيد لهم - بعد استعراض الوجوه كلها - انسانا يحكمون أنه يخجل من أن يردهم وكناهم بلاطة فرن ، فيطلبون إليه - وهو أقرب

منهم للشباك ـ أن يشترى لهم تذكرة مع تذكرته ، خدمة بسيطة لا تكلفه هنا ، فإذا نجحوا تألقت نظرتهم بزهو انتصار الحداقة وحسن الحيلة على العباطة وقصر الذيل ، أزعم أن النساء يفعلن هذا أكثر من الرجال ، اعتمادا على أن رجاء أحمر شفايفهن لا يرد مدحوراً ، وبعض هاته النسوة لهن أزواج من عينتي يقفون بعيداً مكسوفين من جرأة الحرم المصون ، إننى حين أحس بقدوم هذا الصنف من هابطى المظلات أنكمش وأدير رأسى بعيداً عنهم ، وأحياناً أتصنع أنى لا أفهم لغة مخاطبي أيا كانت ، والعجيب أنى أحسب نفسى حينئذ أنى حقا سائح غريب قادم لتوه من بلاد تائهة فى وسط البلقان أو غارقة فى ثلوج شمال أوربا ، فأقف وقفة المتطلع الأبكم ، تدل نظرتى على العجب الممزوج بالسرور لكل ما هو حولى . فهو غريب جديد على ، وأبتسم ابتسامة نصف ذكية ونصف بلهاء ، ومع هذا التخفى لا أدرى لماذا أقع دائما فى الفخ . . هل على وجهى لافتة لا تراها عينى تعلن . هنا أجود أنواع الخجل المعتق ، ومن يشرف يجد ما يسره ، فراستهم لا تخطئنى ولا أستطيع أن أرفض طلبهم ، قد يكون السبب هو كرهى للجدل والأخذ والرد ، فأجد فى القبول أهون الشرين ، وغاية انتقامى أن أختار لهم مقاعد بينها وبين مقعدى فيه كبيت جحا ، ورغم ذلك أظل طول السهرة ، أشعر أنى فى صحبة إنسان يلاحقنى ثقل دمه من بعيد ، ومما يزيد ضيق منه وهمى بأنه غالطنى فى الحساب . .

ها نحن نحتل مقاعدنا بعد لأى ، حاولت مراراً أن أعرف رقم

تذكرتى فلم أفلح ، فهو مكتوب بالشفرة ، الصالة خلية نحل ، ما أشق
الصمت على أبناء بلدى ! كل متكلم يتهم جاره بأنه مسئول عنها ويضيق
به وينظر إليه شزرا ، تضيع فى دوى النحل أغان تنبعث من وراء الستار
تجلجل كالرعد ، لا عجب أن أحدا لا يلقى إليها باله ، إنما يهبط عذابها
فى قرارة نفسه على غفلة منه ، إن أعصاب أهل بلدى من حديد ،
الميكروفون فتح حلقه كالزير كيف لا يطق من شدة التجعير ؟ إن أصحاب
السينما أناس إما صم وإما لا تعرف قلوبهم الرحمة ، ثم تخفت الأنوار
ويبدأ عزف مارش عسكرى وكأنه مكلف وإن حرم الكلام أن يحث
كل قادم أن يدخل ، وكل واقف أن يجلس ، وكل ثرثار أن يصمت ،
ولكن هيهات ! سيقبل صبيان الصالة يخايلوننا ببطارياتهم زمنا غير
قليل ، وأقدامنا تداس ، والشاشة نصفها محجوب عنا ، ما أشد حرص
أهل بلدى على ازعاج خلق الله وعلى عدم احترام المواعيد ، وأخيرا
نبلع ريقنا ونهيء أنفسنا لنعيش فى جو من الخيال فينزعنا من دنيانا
ليلقى بنا فى عالم مسحور ، والظاهر أن صناعة السينما ـ وأنت أدرى بمكر
أصحابها وتعرف من أى جنس هم ـ قدرت أن خدرنا بهذا الجو الجديد
لن يكمل ويحلو إلا إذا أذاقتنا أولا جرعة من خمر قوى يطيح بعقولنا
ونصبح بعد لا نؤمن بمنطق أو حساب فهذه أفلام الصور المتحركة التى
تتصدر البرنامج تقذف بنا فى عالم تطير فيه الرؤوس عن الأعناق ثم تعود
فتلتصق بها ، وأجساد يمر فوقها وابور الزلط فتنبسط كورقة السيجارة
الشفافة ثم تلم نفسها وتقف ، وقنابل تنفجر داخل البطون فيخرج

دخانها من الآذان وتصرع صاحبها غفلة عين ثم يقوم يتجشأ كأنه بلع بذل القنبلة بصلة ، وفأر جربوع سمج له صدر كحوصلة الطيور ، تستطيع أن تقعصه كالبرغوث بظفرك ، ومع ذلك فهو قادر على أن يرفع بيده باخرة تعبر المحيط ليضعوها فوق قمة الجبل .

وهكذا . . أرأيت ؟ إنك بعد هذه المشاهد قد فقدت كل مناعة ضد خطل المنطق وشطحات الخيال ، فكيف لا تبلع بعد ذلك قصة الفيلم الكبير وإن كانت وليدة ذهن مخرف مفلوت العيار، لو عرضت على صبي لأبى تصديقها . .

وفى الإستراحة تنقلب الصاله إلى سوق قائم ، كان طعم المأكولات والمشروبات الذ داخل السينما ، لا تتم لأهل بلدنا متعة إلا إذا أرضعوا المعدة أولا ؛ أهى عندهم عدو أم صديق ؛ جاء دور أفلام الاعلانات ، كيف لا يسحبها أصحابها وهى تقابل ليلة بعد ليلة بالاستهزاء ، ولكن من يدرى ؟ لعل الاستهزاء هو وسيلة أهل بلدنا للتعبير عن الاستلطاف وهذا الإعلان الذى أراه منذ خمسة سنوات على الأقل يؤكد تصفية ٢٠٠٠ قطعة من الحرير ، لعل عداد المحل قد علق على هذا الرقم . . ثم يعود الظلام ونتسلم البضاعة التى اشتريناها وهى النسيان ، نسلم أنفسنا للشاشة أكثر من ساعة ترفعنا وتخفضنا ، تضحكنا وتبكينا ، وإذا ما إشتدت الأزمة ببطل الفيلم وأخرج سيجارة وأشعلها ، قلده كافة المدخنين فى الصالة دون أن يشعروا ، وحين يبادل الفتى حبيبته قبلة على الشاشة تنبعث من أصحابنا الشبان أصوات تشجيع جائع أود معه لو أن

الأرض انشقت وبلعتني ، وكيف أوفق بين مايقال عن انتشار الفساد وبين تشبث هذا الجوع الجنسي بشبابنا أنه مرض لاعلاج له ؛ ثم ينتهي الحفل ، هذا هو المارش العسكري من جديد ، له هذه المرة قوة مضاعفة كأنه عصى تدفع المتفرجين ليسرعوا إلى الخروج ويخلوا الصالة لأناس كلاب الصيد تجوس خلال المقاعد وتكنس أكواماً من قشر اللب وأكياس السندويتش والفشار ، وأصحابنا فى حاجة لمن يدفعهم ، انهم يخرجون كالمذنبين هاربين . أو كضحايا مؤامرة نصب مكسوفين ، ان أبلغ دلائل الاعياء هى التى أراها على وجوه الخارجين من السينما ، لعل تكسر عيونهم وهم خارجون من الظلام إلى النور هو الذى يؤكد هذا الأثر فى نفسى ، والغريب أنهم من غد يشترون هذا الاعياء من جديد بدراهم عزيزة ، كأنما للسينما له عليهم سلطان . . كسلطان المخدرات . .

باب أسئلة القراء

مجلة المقتطف ـ غفر الله لهـــا ـ هى التى جرت رجلى . وجدتها فى الدار حين بدأت أقرأ لعلى عانيت أول الأمر مشقة فى فهم مقالاتها عن داروين ومندل ، فلذت بباب سهل خفيف يجيء فى ذيل العدد ، ولا يزيد البحث فيه عادة عن عمود واحد : هو باب أسئلة القراء . فاذا بى أنغرز ـ وإلى الآن لم أجد النجاة ـ فى عالم غريب أعيش فيه من أناس حائرين فى مشارق الأرض ومغاربها ، هم رغم تباين مشكلاتهم يشبه بعضهم بعضاً شأن المصابين بعاهة مشتركة ، أصبح همهم همى ، وأصبح هـذا الباب « أفيونتى » . بل أول مطلبى فى كل مجلة .

وكانت أسئلة القراء فى عهد المقتطف خالصة لوجه العلم ، ويفصح السائل عن اسمه ولا يرمز بحروف ، ولا يقصد بها كما هو الحال اليوم ـ توفير أجر محام أو طبيب فلم تكن تسأله فتاة ـ قبل مجيء الخطاب ـ عن حب الشباب وعلاجه أو يسأله وارث مارونى لمطلقه بروتستانتى مات فى بلد أرثوذكسى وأملاكه فى قطر إسلامى : أين يرفع دعواه ؟ وبأى قانون يقضى له به ؟ وهذا امتحان عسير حتى لرئيس محكمة العدل الدولية .

إنما كانت أسئلة المقتطف شيئا من هذا القبيل ..

« إيليا قندلفت - سان باولو ، البرازيل ، كم يبلغ عدد شعر الرأس ؟ »

ولا أكتم أنني شعرت بحنو غريب يجذبني إلى إيليا قندلفت . وتصورته رجلا قصير القامة ، بديناً ، مستدير الرأس ، يلبس جلبابا من السكروته - ولو أنه في سان باولو - هاجر من لبنان إلى البرازيل ، يحمل على كتفه أول الأمر « لفة » من الفانيلات والجوارب يجوس بها خلال القرى والدساكر ، وشيئا فشيئا أصبح من كبار الأغنياء وهو مع ذلك لا ينقطع عن قراءة المقتطف فان اسمه مقيد في سجل مشتركيها الدائمين : ماذا جرى لك يا إيليا ؟ هل أرقت ذات ليلة وأنبهم عليك تفسير العالم والكون وعبر التاريخ وتقلبات حياتك ! وتجسم لك كل هذا في لغز محير معمى ، شعر الرأس ! هل أحصاه ياترى إنسان ؟ إن صاحب المقتطف قد أحاط علمه بذلك ، إذ لا تخفى عليه خافية ، وإن كان لا يعلم فهو لحر لك يا إيليا أن تلقنه علم مالم يعلم ، ثم قمت على الفور من الفراش ، وحررت رسالتك ، وقضيت بقية ليلك قلقا ، حتى إذا طلع الصباح سعيت إلى صندوق البريد ، وألقيت برسالتك ، وبدأ انتظارك لقدوم العدد الجديد . لقد انتقلت حيرتك من طورها الحاد إلى طورها المزمن .. إلى أن يصل العدد . كيف استطعت أن تقبل على عملك كما كنت تفعل قبل تلك الليلة الموعودة - وتذهب وتجيء بين الناس وأنت تخفي عنهم مشكلتك الكبرى ؟! ، ها هو موعد البريد قد حل ، وها هو

العدد بين يديك ، تفحص غلافه متعجلا ، وتنفر في لهفة صفحاته حتى تبلغ باب أسئلة القراء ، وتجري أعينك بين سطوره فلا تجد سؤالك ولا جوابه .. ماذا حدث ؟ لعل صاحب المقتطف لم يفرغ بعد من مراجعة دوائر المعارف كلها . فأنت تعرف ياماكر أن سؤالك عويص أو لعله - اكراماً لخاطرك - قد حلق رأسه بموس ، وأخذ يعد المحصول شعرة شعرة ، وهذا عمل يستغرق وقتا غير قليل . فلنصبر للعدد القادم هل خرجت من جديد للناس وأنت تبتسم شأن من يخفي سرا خطيراً ؟ وأخيراً جاء العدد ، وقرأ إيليا جواب سؤاله . قالت له المقتطف : إن عدد شعر الرأس ١٨٦٥٧ شعرة .. هل استرحت الآن ؟ المسألة في غاية البساطة .. لاتحتاج إلى كل هذه الفلسفة . إيليا قندلفت مهاجر ضائع ، بدنه في البرازيل وروحه موثوقة بقمم لبنان . ليس الذي يقض مضجعه هو عدد شعر الرأس ، بل رغبة دفينة في أن يرى اسمه ، نعم ، اسمه هو في المقتطف - لافي غيره - مكتوبا بحروف من النور . هذا تثبيت لوجوده ، وربط له بوطنه ، وإعتزاز آخر الأمر باشتراكه في المقتطف لعل أبناء الجيل الحاضر لايعلمون أن الاشتراك في مجلة كان يضفي على ساكن القرية مقاماً مرموقاً . وهذا يذكرني برجل من أعيان طرابلس الغرب أراد هو الآخر أن يطبع باسمه ولم يكن له عمل أو وظيفة ، فلم يجد شيئا يكتبه تحت اسمه كما يفعل كل أصحاب البطاقات ، وأخيراً كتب « مشترك في صحيفة كوريير دى تريبولى » .

* * *

سؤالا آخر فى المقتطف لازلت اذكره من سائل نسيت إسمه ، لأنه لا يرق إلى مرتبة إيليا قندلفت ... ماعلينا . . يقول : إنه واقع فى حيرة شديدة ، هل يصدق أو لا يصدق هذه الروايات المتواترة التى تحكى عن رجل يعيش فى أسيوط ، تكون جالساً معه فى « عز الشتاء » ويأتى ذكر البطيخ عرضاً على لسانك ، وتتحسر عليه ، فإذا به يمد يده فى الهواء فتعود اليك ببطيخة « يافاوية » حمراء مثل الشهد ؟ وقد ركب مرة وجاء « الكمسارى » يسأله عن التذكرة فيصرفه أول الأمر صرفا رقيقا ، ولكن الكمسارى لم يتركه ، لعله لا يعرفه ، وأغلب الظن أنه يعرفه ويريد هو الآخر أن يرى واحدة من كراماته فألح عليه أن يبرز التذكرة فمد يده من النافذة والقطار ينهب الأرض نهباً فعادت بتذكرة « ترسو .. طبعاً » من أسيوط إلى القاهرة ؟ !

وليس هذا وحده وجه الغرابة . فقد ألفنا هذه الكرامة مع البطيخ . انما يقال بلهجة التأكيد الذى يدعم بأغلظ الايمان . أن رقم التذكرة كان هو التالى لرقم آخر تذكرة صرفت ذلك الصباح من محطة أسيوط . هذه هى الكرامة الكبرى ! لم يكلف صاحبنا خاطره أن يسأل : « ما ذنب صراف التذاكر الذى غرم ثمنها من جيبه ؟ »

ونزل أسيوط ذات يوم رجل من باشوات مصر ، أبطن مفتول الشارب ، جاء ليشترى ضيعة بأكملها ودخل المحكمة وبدأ المزاد ، ورست عليه الصفقة ، وتطلعت إليه الأنظار ليروا كم ورقة بمئذ نة سيخرجها من

جيبه . ووضع الباشا يده فى جيبه فإذا بها تخرج فارغة . لقد نسى محفظته فى البيت ، لأنه خرج متعجلا هربا من زعيق زوجته . ما العمل ؟ يا للفضيحة ! ولكن مهلا ، ان صاحبنا ذا الكرامات جالس فى ركن قصى بالقاعة « ماذا يفعل فى المحاكم ؟ » ، واقترب من الباشا وقال له بعينين نصف مغمضتين وابتسامة نصف مفتوحة : لا تبتئس ! ومد يده فى الهواء ، وقدم للباشا محفظته المنتفخة ، يفوح منها عطر الصندل .. أراد الباشا أن يكافىء الرجل ولكنه أبى وانصرف كالطيف أو النسيم ، والروايات تجمع على أنه يفعل ما يفعل تطوعاً لا يكسب من ورائه مليما واحداً . وهل مثل هذا الرجل يحتاج للسعى حتى يكسب رزقه ؟

جذبنى الحنو - كما رأيت - إلى إيليا قندلفت ، ولكن هذا الأسيوطى أثار غيظى منه . يا رجل ! نحن فى صراع مقيم مع الانجليز « إنى أتكلم بلسان الصبى الذى كنته حينذاك » نعد عليهم وعودهم بالجلاء ، وقد بلغت - والعهدة على الحزب الوطنى - أكثر من ٨٠ وعداً . لعل بخزانة وزارة الخارجية البريطانية وعداً آخر مكتوباً لم يبلغنا خبره ، أو لعلها تخفى تقريراً سرياً للورد كرومر لو عرفناه لانزاح عنا بلاء كبير . تترك كل هذا وتذهب تتصيد البطيخ والشيكولاته والمحافظ ؟!

إنك رجل « مفجوع » نهم ، لا يهمك إلا بطنك . لا وطنك .

وقد اهتم المقتطف بهذا السؤال وقام ببحث مستفيض وأبلغ السائل أنه لم يعثر على إنسان واحد شهد للرجل كرامة واحدة ، وإنما عثر على

ألف شخص يروى كل منهم عن شخص آخر أنه سمع عن ثالث أن رابعاً كان له قريب مات منذ زمن ، وأن أرملته تروى أن صاحبنا كان يفعل كذا وكذا من الكرامات

صاحبنا هذا قد مات ولا ريب، ولكنه لم يختف عن أرض الوادي تصلنى الآن شهادات أخرى مطابقة إلا عن طريق باب أسئلة القراء مع الأسف ،عن رجل يعيش اليوم فى السودان يأتى بمثل هذه الكرامات . وسنسمع عن وريث له بعد جيل أو جيلين فى قلب أفريقيا .. فإن خطوهم هو خطو تقدم الضياء ..

* * *

أغمضت عينى وفتحتهما وإذا المقتطف قد شاخ وتدهورت حاله ولم تنفعه حقن متتالية لتجديد الشباب ، وقضى مأسوفاً عليه ، فإذا بى أندمج فى نوع جديد من أسئلة القراء فى مجلة دينية عارية بغير غلاف لاتجدها إلا مفروشة على الأرصفة أمام المساجد بعد صلاة الجمعة . ولقيت صاحبها فيما بعد ، حين بدأت أخالط محمود تيمور ، وأتعرف حاشيته العجيبة ، فوجدت الرجل يعرف الفرق بين أبى حنيفة وابن حنبل ، بل ولا بين الألف والمئذنة .. كانت مجلته أوسع المجلات الدينيه انتشاراً . كل عدد يشبه الآخر فى الشكل . يبدأ بتفسير آيات من القرآن الكريم ، ثم شرح لحديث ، ثم متابعه للسير النبوية ؛ وأخيراً باب دسم هو باب أسئلة القراء .

وقد عكفت قرابة سنتين ثلاثة على أومأتل هـذا الباب بشغف وحرص ومواظبة ، لا أشترى المجلة إياها إلا إكراما لخاطره وقد لا أقرأ فيها شيئاً سواه ، ولم ينقذنى منه إلا نوع من الملل يداس على نفسه بأنه حب للتنقل ، ولو شفيت من شيطان هذا الملل لتغيرت حياتى وإن كنت لا أدرى أإلى أسوأ أم إلى أحسن ، فقد خيل إلى حينئذ أن هذا الباب يقدم لى بأيسر السبل والذها دراسة حية مستفيضة للمشكلات التحتانية عند عامة الشعب .

أحصيت الأسئلة وقسمتها أبوابا ، فوجدتها من ثلاثة أنواع تـكاد تكون متساوية فى العدد وفى الحاحها على أعصاب قراء المجلة ..

النوع الأول : شعرت نحوه لأول وهلة بكراهية ، واستثقلت دمه أحس أن تحت الجلد السليم الذى يغلف براءة السؤال .. أوراما خبيثة مستترة ، هذه هى الأسئلة التى تدور حول مشكلات الميراث ، وتقسيم التركة .. وبالأخص إذا كان هناك حمل مستكن ، كم يبلغ نصيب ابن ابن العم .. أو بنت بنت الخـالة .. وهـكذا .. ذلك لأنى أعلم أن إستخراج أعلام وراثة من المحكمة .. بعد وفاة المرحوم ، أو المرحومة من أيسر إجراءات التحاكم وأسرعها . . وأرخصها ، لو كان كل الشغل مثله لأفلست وزارة العدل ، بدلا من أن تكون مورداً ضخماً من موارد الميزانية .. إنه ليس قضية تجرى فيها المرافعات ، وتقدم المذكرات . . وتؤجل من جلسة إلى أخرى .. ومن صيف إلى

خريف ، بعد عمر طويل ، بل هو أشبه بمحضر إدارى يقتصر فيه عمل القاضى - بعد أن تأتيه تحريات وزارة الداخلية مبرقشة بأختام العمد ، ومشايخ الحوارى - على أن يثبت واقعة الوفاة .. ويحصر الورثة ، ويقسم التركة بينهم ، وقد وضع ديننا الحنيف للميراث .. ميزاناً دقيقاً صارم المنطق لا يخل ، ولا تخر منه قطرة ماء ..

كان الشيخ أبو زيد أستاذى الجليل . . الذى علمنى الشريعة الإسلامية فى مدرسة الحقوق .. يصفه بقوله : إنه ميزان الذهب ، فليس أمام القاضى عقد مستعصية الحل ، بل أنه فى أول جلسة يفرغ من تقسيم التركة بين الورثة .. وهم قبله أعلم بأنصبتهم ، ثم أن إستخراج إعلام الوراثة لا يحتاج لمحام ، بل كل ما يطلبه القاضى منك أن تأتيه بشهود عدول ، إثنين لا غير .. لا ثلاثة ، ولا أربعة ، لا بأس أن يكونا من أصدقائك الأفندية ، ولا بأس أيضاً أن يكونا من لابسى الجلابية والجاكتة من مرتزقة الشهود المحترفين الواقفين على باب المحكمة ، أجر الواحد منهم لا يزيد عن ريال وعلبة سجائر .. إنهم يعرفون جميع أموات القطر من شماله إلى جنوبه ، ومن شرقه إلى غربه ، ويعرفون أسرهم .. وأقرباءهم بالأسم ، والعمر ، والمهنة .. بل يذهب بعضهم إلى حد ذكر الأسماء مسبوقة بلقب « سى » دلالة على الخلطة والألفة ، سحبان الله .. !

ولكن ماذنب القاضى .. وقد أقسما أغلظ الإيمان إنهما يشهدان

بالحق ، والقاضى ممنوع أن يقضى بعلمه ، أن وزر شهادتهما يقع على رأسيهما يوم الحشر العظيم ..

وقد رأيت بعض أصدقائى وهم - والشهادة لله - من أطيب الناس وأشرفهم يقعون فى مأزق حين يتخلف أصدقاؤهم - كالعادة - عن الوفاء بوعودهم . . فلا يحضرون للمحكمة يوم الجلسة ، فإذا بهم لا يستنكفون من الإستعانة بهؤلاء الشهود ، أقول لهم : كيف تستبيحون لأنفسكم إقتراف مثل هـذا الأثم ؟ .. فأسمع منهم إجابة محيرة كحسبة برما .. يقولون : وهل نطق الشاهد الـكاذب إلا بالحق وحده . . ؟ . . لقـد سمعت شهادته . . فهل هى كذب ؟ . . فأقول لا . . إنها هى الصدق بعينه . . إذن ماذا تريد ، وأين الآثم ؟ . . إنها مسألة إجراءات شكلية لا طلعت . . ولا نزلت . .

فهؤلاء القراء الذين يسألون المجلة عن تقسيم التركة هل فى ظنهم أن مفتى المجلة أعلم من قاضى المحـكمة ؟ . . ثم أن فتواه المجانية لن تغنيهم عن إستخراج أعلام الوراثة ، ولا تصلح مستنداً يحتجون به أمام القاضى ، فما معنى هـذه العجلة . . وهـذا التلهف على معرفة مقدار الإنصبة ؟ . . إننى لا أجد لها سوى تفسير واحد هو أن هذه الأسئلة ليست مقدمة بعد وفاة المرحوم أو المرحومة ، بل مقدمة قبل الوفاة ، والمورث غافل عن الذين يحيطون به . . وقد يـكون راقداً على فراش الموت يشهد ذرف دموعهم يتفاوضون سراً ، ومن وراء

ظهره مع مفتى المجلة . . على تقسيم التركة . . أفلست محقاً فى تأففى من هذا النوع من الأسئلة ؟ . . ، كم من مأتم شهدت فيه تقسيم التركة . . لا قبل هدم السرداق .. بل قبل طلوع النفس ! . . المحفظة الجلد تستخرج من جيب سترة المتوفى المعلقة فى الحجرة التى ترقد فيها جثته ، وتفتحها أصابع متلهفة وتجرد ما بداخلها ، الأثاث يتم تقدير ثمنه ، مصاغ الأم يوزع على البنات ، كل هـذا والدموع منهمرة ، والصوان مرتفع . . وقد يكون بينهن من تلطم الخدود ، لا أنسى قط منظر هذه السيدة الكريمة ، وهى تعالج نزع خاتم من الماس من أصبع أمها المتوفاه ، فإذا هو معصلج بسبب ورم الأصبع ، وتعانى من نزعه مشقة كبيرة تلاحقت بسببها إنفاسها المكتومة ، فلما أنفلت لها تنهدت ـ ولها العذر ـ تنهد من وجد الراحة بعد تعب مرير . .

والثلث الثانى من أسئلة قراء المجلة . . يدور حول حد التحريم فى زواج الإخوة بالرضاعة ، هل هى رضعة واحدة أم إثنتان أم ثلاثة ، وفى جلسة واحدة . . أم فى أكثر من جلسة ، وهل يشترط فى الرضعة أن تبلغ حد الإشباع . . أى يكون فم الطفل مطبقاً على الثدى أطباق كاسات الهوا على لحم المصدور ، لو زحزح عنه قيد أنملة لزمجر كصغار القطط . . إنها أسئلة تخفى كمداً ، وحزناً ، وحيرة . .

هذا هو العريس . . يقطع فى سعادته مراحل الخطوبة جرياً ، ووثباً « مهلا يا فتى ، أمامك بعد الزواج مشوار طويل » . . قد منى نفسيه

الامانى .. وصور لها أكثر من مرة فتاته ، وهى بين ذراعيه شبه عارية ، فمها الرطب يتقد تحت قبلته ، ونهدها يرتسم عليه شىء يشبه وخز الأبر . . وهو يضغط صدره ، وهـذه هى العروس تترقب فى نشوة ووجل إنفجار طاقتها الخام على الحب والمتعة . . انتقل الاثنان من التشابك بأصابع اليد سراً وعلنا . . إلى التشابك بالقبلات خفية من أعين الأهل والأقارب ، ما ألذ الشعور بأن الذى يحبك هو أعز شىء عندك فى الوجـود ، تلقى نفسك من أجله . . فى البحر واللهيب ..

ووسط معـالم الأفراح والليالى الملاح ، وليس بين اليوم وتشريف المأذون . . إلا قاب قوسين أو أدنى ، إذا من أقصى المدينة تدب امرأة عجوز هتماء . . مطبقة الشدقين . . محنية الظهر ، ما تـكاد تجلس وتتنحنح . . وتصيب مما قسم لها من حلوى وشربات ، حتى تدق صدرها وتعلن إنه يدفن سراً رهيباً ، إن كان الجميع قد نسوا . . فإنها لم تنس أن العريس والعروس إخوة فى الرضاعة . . تسقط كلمتها ، كما تسقط القنبلة ، فإن أهل بلدها يهون عليهم كل شىء ، يهون عليهم التفريق بين العروسين من أن يقعوا فى معصية ، تجلب عليهم غضب الله ونقمته . . فما العمل ؟ . . أن مفتى القرية لا يوثق بعلمه . . وقد يفتى لهم ـ بسبب صداقته لهم ـ بقول ضعيف . . . فلا بد إذن من سؤال مفتى المجلة . .

وكانت هذه الأسئلة تثير فى قلبى اشفاقاً كبيراً على أصحابها ، وتمنيت لو عنى كل خطيب مسجد وواعظ ومأذون . فى ريفنا بتبصير أهل بلدنا بأحكام شريعتنا الغراء فى تحريم الزواج بين الاخوة فى الرضاعة ، فإن الجهل بها يؤدى فى بعض الأحيان إلى مشاكل تبلغ درجة المآسى .

ومع هذا الاشفاق الذى يملأ قلبى كنت لا أتمالك نفسى من الابتسام وأنا أتأمل المرأة البلدية وهى تزور جارتها ، ما تكاد تجد بين أيديها أو على حجرها طفلا رضيعاً حتى تجذبه إليها وتلقمه ثديها . الا تتم الصداقة والمعزة بينهن إلا إذا أرضعت كل واحدة طفل الأخرى أم هو نوع من النشوة كنشوه السكارى إذا تشاركوا شرب الخمر على بار أمريكانى

انى أكاد أحس فى بعض الأحيان أن تبادل أرضاع الأطفال نوع من التباهى بفحولة الزوج ..

هذه المرأة البلدية ما تكاد تجلس أمامى فى الترام حتى تخرج ثديها وتدفعه فى فم طفلها ، لها إصبعان عليه كشابك الغسيل ، وقد قال جوستاف فلوبير الذى زار مصر فى منتصف القرن الماضى أنه لم ير فى حياته مثل هذا العدد الضخم الذى رآه فى مصر من حلمات أثداء النساء مكشوفة لأعين الناس .. وقال ـ فوق البيعة ـ إنها قبيحة المنظر .. هذه كلها مظاهر سطحية لطبع أصيل قديم متحجر فى قلوب أهل بلدنا ، ألا وهو حب الولد وحب الخلفة ، ولم أدهش حين رأيت معظم قصص الكتاب الناشئين تدور حول هذا الموضوع ، لذلك فإن تحديد النسل فى بلدنا سيظل أبدا أمرا عسيرا .

والثلث الأخير من الأسئلة كانت عن الطلاق ثلاثا والطلاق المعلق على شرط صبياني كقول الزوج لزوجه « إذا خرجت لزيارة أمك فأنت طالق » وقد استقرت أحكام المحاكم الآن والحمد لله على إبطال مثل هذه الشروط وعلى إيقاع الطلاق ثلاثا طلقة واحدة ، وبذلك فقد باب أسئلة القراء جانباً كبيراً من زبائنه المتسرعين ، ينطقون فى غضبهم بكلمة الطلاق ثم سرعان مايندمون عليها .. أتيحت لهم الحرية فيطلبون السجن من جديد ، ذنبهم على جنبهم .

وبعد هذه الأبواب الكبيرة بقيت أسئلة نادرة تظهر كل حين ومين ، يريد أصحابها من مفتى المجلة أن يسوغ لهم السرقة بسبب اختلاف الدين بين السارق والضحية .

وقد وجدته يزجرهم بأدب وإن كنت أود أحياناً أن يشتد معهم ويقرعهم على حماقتهم وأفن رأيهم ، ما رأيت مثلهم أناسا يعمهم النور فيأبون إلا أن تغشى أبصارهم وأن يعيشوا كالحشرات فى الكهوف والسراديب ..

سبحان مغير الأحوال !! انظر كيف كان باب أسئلة القراء فيما مضى ، وانظر اليوم حاله ، بعد أن شاعت نظرية فرويد والتحليل النفسى . هذا باب ثابت فى كل مجلة أو صحيفة ، لأنه رخيص ، ويملأ الفراغ ، ويتساوى فيه الصحفى القديم والناشىء . لم نعد نقرأ أسماء صريحة ، بل رموزا وحروفا .. من أخ يفسق بزوج أخيه ، وامرأة تخون زوجها بلا سبب ، وتسأل المشورة .. إلى غير ذلك من الفضائح والمخازى تنشر على الناس ، وقل لى بربك : لفائدة من ؟ وهذه الأسئلة

الكثيرة الثرثارة عن الأمراض وعلاجها . ما فائدتها إذا كان الجواب عليها واحدا لا يتغير : استشر طبيبا ؟ إننى أشك أن كثيرا من هذه الأسئلة ترسل للعبث والسخرية ، أو تشهيرا بأناس أبرياء ، أو تؤلف تأليفاً فى إدارة المجلة ، بدليل أن أول عدد يصدر من مجلة جديدة يتضمن أيضاً أسئلة من القراء . فمتى كتبوا ؟ غير أن متابعة هذا الباب وأجوبة المشرفين عليه تدل على التيارات المتناقضة التى يواجهها الشباب فى الوقت الحاضر فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية ، وعلى أى أساس تقوم .

وأخيراً لم يسلم باب أسئلة القراء من أدعياء ينتسبون إليه ، أعنى باب إعلانات الزواج ، ولكن هذا بحث عجيبة دلالاته تستحق دراسة مستقلة ..

فهرست

* * *

القسم الثانى : اللوحات

للمؤلف

١ — قنديل أم هاشم .

٢ — دماء وطين .

٣ — أم العواجز .

٤ — صحّ النوم .

٥ — فجر القصة المصرية .

٦ — خليها على الله .



طبع الغلاف بمطابع شركة الشمرلى بالقاهرة